

بلاد الكرز قال

جورجى أمادو
ترجمة / شحات صادق

مفتدى مكتبة الاسكندرية



بلاد الكرنفال

الكتاب : بلاد الكرنفال
رواية

الكاتب : جورجي أمادو

ترجمة : شحات صادق

الطبعة : الأولى ١٩٩٨ م

الناشر : مكتبة مدبولي - ٦ ميدان طلعت حرب القاهرة

ت: ٥٧٥٦٤٢١ - تليفاكس: ٥٧٥٢٨٥٤

رقم الإيداع : ٩٧/٧٨٦٦

الترقيم الدولي : 8 - 209 - 208 - ISBN 977 -

لوحدة الغلاف : أحمد صفوت

الجمع التصويري : دار جهاد ٢٦ ش إسماعيل أباطة - لاطوغلي

والتنسيق الداخلي : ت: ٣٥٦٤٧٨٣

چورچی آمادو

بلاد الكرنفال

(رواية)

ترجمة: شحات صادق

الناشر
مكتبة مدبولي
١٩٩٨

آمادو الروائى والإنسان

هو أكبر كاتب برازيلي معاصر. وواحد من أشهر كتاب أمريكا اللاتينية وأكثرهم مبيعاً فى العالم (٣٠ مليون نسخة فى ٣٥ لغة). ورائد من رواد الواقعية المدهشة التى يطلق عليها البعض الواقعية السحرية. أسماء رواياته وأبطاله تطلق على المطاعم والحانات والشوارع وتستوحى فى المؤلفات الموسيقية. أغلب أعماله يتم اقتباسها للسينما والمسرح والتلفزيون.

عمل فى الصحافة مراهقاً لم يبلغ الخامسة عشرة. مارس العمل السياسى مناضلاً فى صفوف اليسار وانتخب نائباً بالبرلمان عن «سان باولو». تعرض للملاحقة وعرف السجن والمنفى. زار العديد من البلدان وأقام فى بعضها لفترات إبان حكم الدكتاتوريات البرازيلية. سافر إلى أمريكا وروسيا والصين وشيلي والأرجنتين وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا فكانت له صداقات مع الأدباء والفنانين فى هذه البلاد. حصل على أكبر الجوائز الأدبية فى بلاده ونال جائزة لينين فى الأدب فى ١٩٥١. انتخب عضواً بالأكاديمية البرازيلية للآداب فى ١٩٦١.

ولد «جورجى آمادو» فى ١٠ أغسطس ١٩١٢ فى جنوب ولاية «باهيا» بشمال شرق البرازيل. كان أبوه «جواو» أحد الملاك الصغار لمزارع الكاكاو فى وقت كانت المنطقة تعيش تحولات اقتصادية واجتماعية عنيفة؛ فالزراعات التقليدية لقصب السكر والبن تحمل محلها زراعة الكاكاو الأوفر ربحاً. ولقد شهدت هذه التحولات صراعات دموية للاستيلاء على الأراضى كان أبوه يشارك فيها، وكانت هذه المنازعات تحسم بطلقات الرصاص أو طعنات الخنجر.

ويأتى فيضان نهر «كاشويرا» فى ١٩١٤ فيدمر الكثير من الزراعات ويقلس الأب فيؤسس تجارة صغيرة فى «إيلياوس» حيث يستقر مع أسرته ولكنه سرعان ما

يؤسس من جديد مزرعة للكاكاو في ١٩١٧. في هذه الفترة، وفي مرحلة الطفولة المبكرة تتفتح عينا «جورجي آمادو» على جو العنف والصراع على الأرض. وعندما يبلغ سن العاشرة في ١٩٢٢ يلحقه أبوه بالقسم الداخلي بمدرسة أنطونيو فييرا اليسوعية في «سان سلفادور»، وهناك يقوم الراهب البرتغالي «لويس جونزاجا» بإرشاده إلى طريق الأدب البرتغالي الكلاسيكي والأدب الانجليزى الرومانتيكي، وهو الذى يكتشف مواهبه الأدبية المبكرة. ولكن «جورجي آمادو» يضيق بجو المدرسة ويحاول أن يهجر الدراسة.

وعند يبلغ «جورجي آمادو» الرابعة عشرة في ١٩٢٦ يقوم بمغامرة سيكون لها تأثير كبير على حياته وأدبه. يهرب آمادو ويذهب إلى مزرعة جده في ولاية «سيرجيب». ويجتاز عدة مئات من الكيلومترات سيراً على الأقدام، عبر الحقول في «باهيا» ودون مليم في جيبه فكان ينزل في ضيافة الفلاحين وعبيد الأرض من الزنوج والخلاسيين. وفي ١٩٢٧، يلحقه أبوه من جديد بالقسم الداخلي لمدرسة «إيبيرانجا» في «سلفادور» حيث جو المدرسة أكثر انفتاحاً من سابقة. وهناك يساهم في النشاطات الأدبية للمدرسة ويقرأ بنهم لكتاب البرازيل وكتاب أوروبا. ويحدث في ذلك الوقت أن تمتد «حركة الحداثة البرازيلية» إلى «سلفادور» فيشارك فيها آمادو بحماسة، وفي هذه الفترة أيضاً، يساهم بالكتابة في عدة صحف منها «يوميات باهيا» و«الأسبوع»، و«منتصف النهار» و«اللحظة». وفي مدينة سلفادور يحيا حياة بوهيمية تتيح له أن يتعرف على قاع المدينة وأزقتها الخلفية ويعاشر أهلها عن قرب خاصة الصعاليك والمشردين والحمالين والباعة المتجولين وباعة الفطائر والمأكولات الشعبية والمومسات...

وفي يونيه ١٩٣٠، بعد أن يتم دراسته الثانوية، يذهب إلى «ريو ديه جانيرو» استعداداً للالتحاق بالجامعة، ويكتب أولى رواياته «بلاد الكرنفال».

وفي ١٩٣١ يلتحق بكلية الحقوق، وينضم إلى جماعة الأدباء الشبان. وفي

نفس العام تصدر «بلاد الكرنفال» التي تنفجر كقنبلة في الجو الأدبي الراكد آنذاك.
وتلاقي الرواية حفاوة شديدة من النقاد والجمهور على السواء.

في هذه الرواية التي كتبها في سن الثامنة عشرة آمادو يله على موطن
الداء في البرازيل: البحث عن الهوية. ليس في السياسة فحسب بل في الاقتصاد
والأدب وأساليب الحكم وكل نواحي الحياة.

أليست هي العضلة في كل بلاد العالم الثالث تقريباً؟ وهكذا تكون هذه
الرواية التي كتبت منذ أكثر من ستين عاماً صالحة للقراءة اليوم وغداً، بأبعادها
الإنسانية وتخطيها لحواجز التاريخ والجغرافيا معاً.

وسوف تؤكد أعمال آمادو اللاحقة على التزامه السياسي والاجتماعي إذ تصدر
له «كاكاو» في ١٩٣٣ فتصادرها الشرطة لتصديدها لمشاكل البرازيل الاجتماعية،
تتبعها رواية «عرق» في ١٩٣٤، «جويابا»، «بحر ميت» في ١٩٣٦، «قباطنة
الرمال» في ١٩٣٧، طريق البحر (شعر) في ١٩٣٨، «ألف باء كاسترو ألفيس»
(سيرة) في ١٩٤١، «فارس الأمل» في ١٩٤٢، «أراض لا نهاية لها» في ١٩٤٣،
«أرض ثمارها من ذهب» في ١٩٤٤، «دروب الجوع» في ١٩٤٦، «في حب
كاسترو ألفيس» (مسرحية) في ١٩٤٧، «عالم السلام» (أدب رحلات) في
١٩٥٠، «أنفاق الحرية» في ١٩٥٤، «جابريل» في ١٩٥٨، «البحارة المستون» في
١٩٦١، «رعاة الليل» في ١٩٦٤، «دونا فلور وزوجها الاثنان» في ١٩٦٦،
«دكان العجائب» في ١٩٦٩، «تيريزا باتيستا» في ١٩٧٢، «تيتادو أجروستي» في
١٩٧٧، «فاردا فارداو» في ١٩٧٩.

ويقسم بعض النقاد هذه الروايات تقسيماً مكانياً إلى ثلاث مجموعات:
روايات الأرض، وروايات البحر، وروايات المدينة. وهناك تقسيم آخر يحلو

لبعض النقاد أن يتبعوه إذ يقسمونها إلى: روايات - ملاحم، وروايات - قصائد، وروايات - مسأخر. وفي كل هذه الأعمال يعالج آمادو موضوعاته وشخصياته مركزاً على الوجدان الشعبي بكل ما يرفده من حكايات شعبية وأساطير وفولكلور معتمداً على أساليب الحكى الشفاهية، وإن كانت غنائية لا تحجب الوثائقية في أعماله، إذ تعتبر كل أعماله وثائق اجتماعية واقتصادية وسياسية تقف على قدم المساواة مع الأبحاث الأكاديمية في علوم الاجتماع والانثروبولوجيا.

وإذا كان بعض الأدباء يعيشون في أبراج عاجية أو في أفضل الأحوال، يجمعون حولهم حلقة من المريدين من ناشئة الأدباء أو مدعى الأدب فإن «آمادو» يعيش كأديب وإنسان ملتجماً بشعبه الذى أحبه والذى يسأله حباً بحب. وهذه شهادة من الأستاذ «روجيه باستيد» الناقد الأدبى وعالم الأنثروبولوجيا الفرنسى الشهير والذى تجمعه صداقة حميمة بـجورجى آمادو. يقول «روجيه باستيد»: «كنت أرافقه مراراً فى شوارع «باهيا» وكانت تأتى بنات الله للمركع أمامه طالبات بركته، وكان الباعة المتجولون يحيونه بصيحاتهم وضحكاتهم المرحية. وكان الزوج يشدونه بين سواعدهم ويقدمون له قلدحاً من القهوة أو كأساً من الشراب تعبيراً عن الصداقة المناضلة».

وأخيراً، فإن «بلاد الكرنفال» التى صدرت فى البرازيل فى ١٩٣١ ظلت حتى وقت قريب لا يمكن قراءتها إلا بالبرتغالية حسب رغبة مؤلفها. فى ١٩٨٤ فقط، ونحت إلحاح الأستاذة «لوتشانا ستييجانو بيتشو» وافق جورجى آمادو، وبصفة استثنائية، أن تظهر الرواية فى إيطاليا فى طبعة خاصة بمناسبة عيد ميلاده. بعد ذلك كان طبعياً أن يصرح للسيدة «آليس ريار» أن تترجم الرواية إلى الفرنسية فصدرت عن دار جاليمار فى باريس فى ١٩٩٠ وهى التى نترجمها هنا.

ومن حسن المصادفة أن أول أعمال «جورجي آمادو» التي تترجم في مصر هي
في نفس الوقت أولى رواياته: «بلاد الكرنفال» والتي يواكب نشرها الاحتفال بعيد
ميلاده الثاني والثمانين. فلينعم بالصحة والعمر المديد.

شحات صادق

نوفمبر ١٩٤٤



بين زرقة السماء وخضرة البحر، كانت السفينة تنجيه إلى المرفأ في خط مستقيم، يرفرف فوقها علم الوطن ذو اللونين الأخضر والأصفر^(١).

كانت الثالثة بعد الظهر. الهواء ساكن وحرارة الجو مرتفعة. وعلى متن السفينة، بين الفرنسيين والإنجليز والأرجنتينيين واليانكي^(٢)، كانت البرازيل كلها موجودة وصيحات (مرحباً بالكرنفال!).

إقطاعيون أغنياء عائدون من أوربا حيث جابوا الكنائس والمتاحف، ودبلوماسيون تذكر هيتهم بعارضى الأزياء. سياسيون سمان أغنياء مع بناتهم النحيفات الساذجات وأولادهم الدكاترة الأغنياء.

وفي الخلف كانت فرنسية جميلة تملأ عينها من روعة مياه البحر. مغامرة متدربة حتى يقال: إنها تعرف كل البلدان وكل الأجناس، وما معنى بالتالي أنها تعرف كل أنواع الرجال. كانت تبتسم في تسامح لحفنة من الأبناء الحالمين لبعض العائلات البرازيلية والأرجنتينية الثرية:

(١) علم البرازيل (المترجم).

(٢) اسم أطلقه الإنجليز على المستعمرين المتمردين في نيو إنجلاند، ثم أطلقه الجنويون على الشماليين، ومنذ ذلك الوقت والاسم يطلق على سكان الولايات المتحدة الأنجلو ساكسون. والمقصود به هنا هو الأمريكي الأبيض. (المترجم).

- إنك جميلة يا آنسى...

- إننى أبذل حياتى من أجلك...

- إشارة منك وألقى بنفسى فى الماء!

- أود أن تغرق السفينة لأبرهن لك عن مدى حبنى...

كل ذلك قيل بفرنسية ركيكة أثارت حسد الشبان الذين يقرأون «ديكويرا»،
والذين يكونون لـ «تيرادنتس» (١) عاطفة وطنية.

كان الجميع يتصببون عرقاً فى ملابسهم السميكة الأنيقة المصنوعة فى باريس
ولندن بأثمان غالية، ماعدا الفرنسية التى كانت ترتدى فستاناً بسيطاً من المسلمين
الأبيض. كانت جميلة حقاً. عينان خضراوان بلون البحر وبشرة شديدة البياض.
فلا غرابة فى أن يعبر لها هؤلاء البرازيليون والأرجنتينيون الاستوائيون عن
فصاحتهم العزيزة على الوطن.

فى مقدمة المشهد كان هناك أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وإقطاعى، وأسقف،
ودبلوماسى، وزوجة عضو مجلس الشيوخ، يتجاذبون أطراف الحديث فى طمأنينة
برجوازية لأولئك الذين يمتلكون مملكة الأرض ولديهم ثقة فى قدرتهم على
شراء مملكة السماء قال الإقطاعى:

- نعم، إن المحصول وفير ولكن الثمن...

- إيه ياكولونيل (٢)، أتريد أن تجعلنى اعتقد...؟ حتى بهذا الثمن فإن البن

(١) هو طبيب أسنان كما يعنى اسمه (تيرادنتس) واسمه الحقيقى «چواكيم خوسيه داسيلفا
شافيه» (١٧٤٦ - ١٧٩٢) قاد ثورة ضد البرتغاليين فقبضوا عليه وأعدموه. (المترجم)

(٢) «كولونيل»، من الألقاب الشرفية فى البرازيل. (المترجم)

سيستمر في تحقيق أرباح خيالية... إنه ثروة «سان باولو» (١) وثروة البرازيل.
اندفعت زوجة عضو مجلس الشيوخ في حماسة شوفينية:

- ذلك بالتحديد لأن البرازيل هي «سان باولو».

- أوه، سيدتي! معذرة إن كنت لا أشارك سيادتك الرأي، لكن... كان
الدبلوماسي هو المتحدث. فهو سكرتير السفارة في باريس، ومع ذلك لم تترك
أول وظيفة له في خدمة الوطن أي أثر عليه. لقد ولد في «باهيا» (٢) يحمل في
دمه وفي شعره أمارات فسوق أسلافه البرتغاليين مع جداته الأفريقيات.

- ولكن هناك ولايات أخرى كبيرة... انظري «باهيا». سيادتك، إن «باهيا»
تنتج كل شيء... كاكاو، وتبغ، وفاصوليا سوداء. وتنتج أيضاً رجالاً ياسيدتي،
عبقريات كبيرة... «روى باربوزا» (٣) كان باهينياً...

- ولكن اليوم يا دكتور (٤)...

- أوه، سيدتي، لا تقولي لي... اليوم أيضاً هناك مواهب كبيرة... أمن الأسقف
قائلاً:

- إن الدكتور نفسه هو البرهان...

- رفقاً غبطة الأسقف... إن الكنيسة دائماً ذات إحسان..

لخص عضو مجلس الشيوخ، بما يعطيه مركزه من سطوة، مجمل المحادثة على
النحو التالي:

(١) «سان باولو» العاصمة الاقتصادية للبرازيل. (المترجم)

(٢) «باهيا»: ولاية برازيلية في الشمال الشرقي، وعاصمتها مدينة سلفادور على الأطلنطي.
مسقط رأس الكاتب. (المترجم)

(٣) «روى باربوزا»: أديب وسياسي بارز، نال شهرة كخطيب مفوه. وهو أكبر برلماني وضع
بلاغته في خدمة العدالة الاجتماعية. (المترجم)

(٤) «دكتور»، من الألقاب الشرفية في البرازيل. (المترجم)

- إنها البلد الأكبر مستقبلاً في العالم!

قال شاب جاء للتو:

- بالضبط: لقد أجاد السيد تعريف البرازيل (ابتسم عضو مجلس الشيوخ ابتسامة عريضة). فالبرازيل هي البلد الأخضر بلا منازع، المقسم بالمستقبل وبالأمل... الأمر لا يتعدى ذلك أبداً... فانتم البرازيليون. شيوياً أو شيباباً، يامن كنتم تمثلون أو ما زلتم تمثلون أمل الوطن، إنما تحملون المستقبل. «ستكون البرازيل في مدى قرن أول بلد في العالم». أراهن أن هذا المؤرخ الكريه «بيروفاز ديه كامينيا» قال هذه العبارة ذاتها عندما وجد «كابريال»^(١) بالمصادفة البلد الذي جاء ليكتشفه عمداً.

احتج الدبلوماسي. واضعاً يده على صدره بحركة مسرحية:

- إن كل أجنبي يعرف اليوم بفضل سلكتنا الدبلوماسي - وبلا تواضع - البرازيل العظيمة الشهيرة!

- وبلا انتظار، فإن هذه الفرنسية الشابة التي عرفت العالم كله، وكان لها ماخوراً في بكين، واتخذت من الزوج عشاقاً في مستعمرة «الكاب»^(٢) وريحت أموالاً في «مونت كارلو»^(٣)، تعتقد أنها تبهر باتجاه بلد يدعى «بوينس أيريس» وعاصمته هي البرازيل، المدينة التي يرتدى سكانها التنورة. وأستطيع أن أؤكد لك ياسيدي أنها ذاهبة إلى هناك لتتمكن هي نفسها من ارتداء التنورة، لأنها من أنصار الحياة البدائية.

(١) بيدرو ألفاريس كابريال، ملاح برتغالي استولى على البرازيل لحساب البرتغال في ٢٢ أبريل ١٥٠٠م (المترجم)

(٢) مدينة بأقصى الجنوب الغربي لجنوب أفريقيا، ومينائها المعروف بنفس الاسم يطل على المحيط الأطلنطي (المترجم)

(٣) مدينة بإمارة موناكو بها كازينو القمار المشهور. (المترجم)

- إنها خليعة، هذا مؤكد.

- سوف تصاب المسكينة بالإحباط!

- ولكن يا دكتور «ريجييه»، من وجهة نظر دينية على الأقل، فإن البرازيل شهدت تقدماً كبيراً. واليوم...

- اليوم، تسود الخرافة. في الشمال، الدين ياميدى عبارة عن خليط من عبادة الأوثان، واستحضار الأرواح، والكاثوليكية. ومن ناحية أخرى، فإننى لا اعتقد أن المسيح قد جاء بدين. لقد كان المسيح مجرد يهودى رومانسى ناثر. أنكم أنتم معشر القساوسة والبابوات من تصنعون الدين... ولكنكم إذا ظنتم أن هذا الدين هو السائد فى البرازيل، تكونون مخطئين. فهناك تحريف إفريقى لهذا الدين. «فالماكومبا»^(١) فى الشمال تحمل محل الكنيسة التى حلت محلها فى الجنوب محافل مناجاة الأرواح. إن مسألة الدين فى البرازيل هى مسألة خوف.

رسمت زوجة عضو مجلس الشيوخ، التى بدا عليها الاستنكار، علامة الصليب. بينما رسم الدبلوماسى على شفتيه ابتسامة فارغة. أما الأسقف الذى كان ذكياً فقد أراد أن يحتج ولكن الوقت لم يسعفه، فقد دق شاب من عمال السفينة ناقوساً ضخماً معلناً عن موعد الطعام، وأطاع الجميع سلطان المعدة.

على سطح السفينة، استغرق «باولوريجييه» فى أفكاره. ها هو عائد إلى البرازيل بعد سبع سنوات من الغياب. عندما كان لا يزال فى المدرسة الثانوية، فقد أباه الذى كان من أغنى إقطاعى الكاكاو فى جنوب ولاية باهيا: كانت آخر رغبة لريجييه المعجوز أن يذهب ابنه ليتعلم فى أوروبا. وهكذا ما إن أتم باولو دراسته

(١) «الماكومبا»: طقس دينى يمارس خلاله الزوج الرقص والغناء على قرع الطبول وهو أشبه شىء بالزار عثنا (الترجم)

الثانوية حتى اتجه إلى باريس من أجل الحصول على درجة الليسانس. لقد أراد ريجيه المجوز أن يحصل ابنه على شهادة. فقد كان الحصول على درجة علمية من البرازيل أمر تافه للغاية، فلا مستقبل إلا لحاصل على الدكتوراه من أوروبا.

وفي باريس، وكأمر طبيعي، فعل باولو ريجيه كل شيء إلا دراسة القانون. وعندما حصل على الشهادة، أصبح متبرماً وقد لوثته كل آداب ماقبل الحرب وبسبب روحه المتوثبة، كان له أصدقاء بين المثقفين، يغشى أوساط الصحفيين، يردد عبارات رنانة فارغة، يتناقش ويأتى دائماً بالنقيض. كان الموقف المضاد موقفه دائماً. لم يتوصل، وقد أصبح فرنسياً أكثر من الفرنسيين، إلى إيجاد أساس لحياته. لم تكن له فلسفة معينة، فهو يسخر من روح الجلد عند الجيل الجديد ويقول إن الإنسان الموهوب ليس في حاجة إلى فلسفة.

كان في السادسة والعشرين شخصاً عقلياً، يتفرج على الحياة، غير مكترث، وكان قد فقد، منذ وقت طويل، الحس الديني والإحساس بالوطن. كان بارداً لا يتأثر. كانت له ملذات شتى: يحب معارضة أفكار زملائه، وكان لديه ميل إلى دراسة النفوس.

طاف بكل أنحاء باريس، من أكثر الصالونات ارستقراطية إلى أحقر الكباريات، مدفوعاً بشهوة التنقيب في النفوس وتعمية العواطف ودراساتها...

وهكذا كان يعتقد بأنه إذا حدث في يوم أن تعرضت حياته لمغامرة فإنه سيكون مستعداً لمواجهة ودراستها وتشرحها. كان يلبس نظارة أحادية العدسة (مونوكل) لأنه قيل إن هذا النوع من النظارات قد تخطته الموضة. تعلم في باريس أن يتأنق في ملبسه وأن يشيع كل ملذاته.

وكمغمس في اللذات، كان شبه مفتون بغرائزه. فقد جرب كل المواقف. وكان بنظره المتعبة الحزينة يبدو كإنسان هجر كل الشهوات دون أن يشبعها. وكانت تسبح على شفثيه الرقيقتين ابتسامة مريرة ساخرة تثير القلق.

لم يعد «باولوريچيه» يؤمن بالسعادة، ومع ذلك فهو يشعر فى دخيلته بأنه غير راضٍ. كان يشعر أن حياته ينقصها شئ. ما هو هذا الشئ؟ إنه لا يعرفه. وكان ذلك يعذبه. لقد كرس كل حياته للبحث عن غاية. كان يتمتم، على سطح السفينة، ناظراً للبحر: «نعم، لأن كل حياة لابد لها بالضرورة من غاية... ولكن ما هى؟» لكن البحر لم يأبه له، ولم يجبه. كانت الشمس المحتضرة ترسم فى الأفق مناظر ذات ألوان ملتعبة. إن الشمس هى أول التكميين فى العالم...

وفى أثناء العشاء، ابتسمت له الفرنسية الشابة. كان فى ابتسامتها وعد فتان برغبات مجنونة. أخذ باولوريچيه يتخيلها عارية. لابد أن تكون رائعة... هذه المرأة الناضرة، لابد أن تكون ناعمة. أقسم أن يتعرف بها. كانت على حافة السفينة تبتسم بسداجة من لعب الأمواج البرئ. اقترب «باولوريچيه».

- مدموازيل...

- لا لست مدموازيل بل «جولى».

- آه «جولى»، إنك رائعة!

- أهذا كل ماتقوله لى؟ إنه نفس ما قاله لى كل هؤلاء الأولاد وهم يغازلوننى توأ. لقد ظننت أن لديك شيئاً جديداً تقوله لى...

- بالتأكيد. أريد أن أقول لك إن عينيك تعد بأشياء غير معقولة، ولكننى أعرف كل الأشياء اللا معقولة، وأشك فى أنك ستمنحيتنى شيئاً جديداً.

- اليوم، فى الساعة الواحدة، سيكون باب قمرنى مفتوحاً.. سأنتظرك.

راح باولوريچيه فى قمرته يتساءل عما إذا كان عليه أن يذهب إلى جولى!

كان الإعياء يسيطر على أعضائه، إنه يفكر فى چولى، إنه خائف من عينيها. لا، لن يذهب. فهذه المرأة لديها القدرة على الالتصاق به كالجرب فى البرازيل. وفوق ذلك، فإنها مجرد عاهرة مشهورة. امرأة تمارس الحب من أجل المال، دون حب. ما الجديد الذى تستطيع أن تعطيه إياه؟ اللذة، إنه يعرفها. الشهوة... لكن الحب ليس شهوة فحسب. ربما يكون شيئاً أكثر من ذلك... هذا الشيء الآخر لا يعرفه. كان يجزم بعدم وجوده. وسواء كان موجوداً أم غير موجود، فإن الفرنسية الشابة لا تستطيع أن تمنحه إياه. إنها تعطى جسدها فقط... وبنفس الطريقة دائماً، كما هو الحال. تفاهات ! لا. لن يذهب...

انتظرت چولى طوال الليل عارية، تحلم بلذات لاحدود لها. وكانت تبكى من الغيظ، وتعض وسادتها... وفى النهاية شتمته، إنه حيوان. ألا يعلم أنها ادخرت له المداعبات التى لم تبعها قط لمخلوق... مغفل !

وكان باولوريچيه يحلم بأن له حبيبة رومانسية تقرأ كتابات «هنرى آرديل»، وتعزف على البيانو فالسات عاطفية.

وفى اليوم التالى كانت صبيحة الاكتشاف:

- البر ! البر !

وفى البعيد، لاحت بلاد الكرنفال.



كان باولوريچيه متكأ على نافذة الفندق، يقرأ صحف الغد. كان فى ريوديه چانيرو، ومع ذلك، كان يشعر أن عاصمة الجمهورية لم تكن البرازيل. لقد جاب كثيراً من المدن الكبرى فى العالم. ولم تكن هذه المدن تخص بلداً بعينه، بل كانت مدناً عالمية. فباريس ولندن ونيويورك وطوكيو وريوديه چانيرو تخص كل البلاد، وكل الأجناس. كان باولوريچيه يطوق إلى التوغل فى الداخل، نحو «بارا» و«ماتو جراسو»، وأن يشعر عن قرب بروح الشعب الذى هو فى النهاية، شعبه. كلا، ليس شعبه... إن شعبه ليس هنا فتريته الفرنسية كانت تصرخ فيه بأن شعبه هنالك فى أوروبا. كان يتذكر أن البرازيليين فى باريس كانوا يطعنون فى وطنهم أما هو، وبروح المعارضة فكان يمتدح وطنه. وكان المسافرون على سطح السفينة، وقد أخذهم الحنين، يعظمون البرازيل، أما هو فكان يفعل العكس. والآن يريد أن يكون فكرة عن البرازيل. فى أوروبا، وفى الساعات التى كان قناع العقلانى يسقط عنه، كان يفكر فى اللحظة التى يعود فيها إلى الوطن، ويحلم بأن يتخرط فى السياسة، ويؤسس صحيفة تعلق من شأن البرازيل...

كانت وطنيته اللحظية تثير سخرية أصدقائه، وتجعلهم يداعبونه، فكان يعتذر بأن كل ذلك كان بدافع الأنانية. كان يريد أن يعلو من شأن وطنه، وبالتالي، يعلو من شأنه هو «باولوريچيه». مجرد وسيلة... ولكن فى دخيلته كانت الأنانية تملأه...

كان أصدقائه يوافقونه. فالوطن لم يكن بطبيعة الحال هو الغاية...

لم تكن الصحف تتحدث إلا عن الحملة السياسية التي نهز البلاد. ففى جانب، كان رئيس الجمهورية، الذى يستند إلى عدد معين من الولايات، يريد أن يفرض مرشحاً من اختياره ليخلفه فى السلطة، وفى الجانب الآخر، كانت ولايات المعارضة تريد انتخاب رئيس بإرادتها.

قرأ «باولوريجيه» فى إحدى الصحف: «لا يزال هناك برازيليون يعرفون كيف يموتون فى سبيل الحرية» كانت هذه الكلمات المطبوعة بحروف كبيرة مقتطفاً من خطبة لأحد نواب المعارضة.

ابتسم ريجيه:

- يالها من ميتة غبية، الموت كفاحاً من أجل حرية الوطن...

كان خادم الفندق الذى دخل بطعام الإفطار يتمتم:

- هذا الشخص من أنصار «برستس»...

بعد أن قدم له الطعام (وبعد أن داعبت أذنيه خشخشة نقود البقشيش).

أخذ يمتدح مناقب الدكتور «خوليو برستس». وسط دهشة ريجيه.

* * *

أخذ باولوريجيه يسير فى الشارع على غير هدى. يشعر أنه غريب فى وطنه. كان يجد كل شئ مختلفاً... إذا كان يشعر بذلك فى ريوديه جانيرو فكيف سيكون الحال فى «باهيا» عندما يذهب ليستقر بصحبة أمه العجوز؟...

هل سيستطيع العيش هناك؟ وألم به حنين جارف إلى باريس... يجب أن يعيش بطريقة برجوازية... لن يكون له زملاء مثقفون... سوف يتفتح ذهنه...

وربما يتزوج... وربما يذهب ليسكن فى المزرعة... يالها من نهاية بالنسبة له،
أفسدته الحضارة وأمرضته... المهم...

توقف باولوريچيه أمام محل للأسطوانات. كان صوت «المارش» الصاخب
يملأ الفضاء بموسيقى غربية شجية مفعمة بالمشاعر التى لا يفهمها باولو.

كانت كلمات «المارش» تقول:

منذ زمان وهذه المرأة تستفزنى...

إضربها...

إضربها...

فكر باولوريچيه:

- لا بد أن هذه هى الموسيقى البرازيلية. الموسيقى العظيمة للبرازيل.

وظل ينصت مأخوذاً ببربرية الإيقاع. لا بد أن تكون روح الشعب هنا... ولما
كانت مختلفة عن روحه... لم يكن قط ضرب امرأة. كانت الأغنية تزعق:

إضربها...

إضربها...

ثم واصل طريقه. وعلى مبعده قابل الدبلوماسى.

- أوه، دكتور ريچيه ! فى نزهة، أليس كذلك؟

- فعلاً. أقوم باكتشاف ريو...

- ألم تكن قط فى العاصمة، يا دكتور؟

- كلا. عندما ذهبت إلى أوروبا أبهرت من باهيا. ولكنى هذه المرة اعتزمت أن أعود إلى هنا خصيصاً لاكتشف ريو...

- وهل أعجبتك؟ نعم، بطبيعة الحال، كما أخمن. إنها الطبيعة يا دكتور، أليس كذلك؟ الطبيعة الساحرة.. أجمل شيء فى الوجود.

- ولكنى أعتقد أن الطبيعة تسبب ضرراً بالغاً للبرازيل. فالإنسان هنا يبدو كسولاً متراحياً... لابد أنها الطبيعة... بكل عظمتها، تسبب الضرر. إنها تسيطر وتسحق.

- نعم. ربما... ولكن. لقد كان لدينا عظماء يا دكتور. روى باربوزا... كان باولوريچيه قد قرأ لروى باربوزا. لم تمتعه قراءته... بلاغته صاخبة... ولم يفهم كيف يعجبون بهذا الرجل... وفوق ذلك، ليست لديه أفكار... ذو نزعة وطنية بلهاء... ومضجرة. كلا، من المؤكد أن ليس لديه ما يشغل باله بروى باربوزا هذا.

قال الدبلوماسى «خوسيه أوجستو داسيلفا ريس» مستنكراً:

- إن روى عبقرى... عبقرى... عبقرى إلى أقصى الحدود... حتى فى فرنسا يعجبون به.

- فى فرنسا؟ جائز...

- والقانون؟ إن قليلين من يعرفون القانون مثل روى. والمنصب الذى يشغله فى «لاهاى»؟

- إن معرفة القانون لا تحتاج لموهبة. الذاكرة تكفى...

قابلا أحد الباهيانيسين. نائب من جنوب الولاية. إن رأسه الصغيرة وأذنيه الكبيرتين يدلان على غباء وراثى.

قام خوسيه أوجستو بالتعارف:

- دكتور أنطونيو راموس «نائب من باهيا. دكتور باولوريچيه الذى عاد من فرنسا. إنه ابن جودو فريدو الكبير..

- أوه كم أنا سعيد بمعرفتكم... فنحن أبناء بلد واحد.

عقب خوسيه أوجستو:

- نحن أبناء ثلاثة بلاد...

جلسوا فى إحدى الحانات لتناول مشروب فاتح للشهية. اقترح النائب أن يكون على شرف باهيا. دار الحديث عن حملة الانتخابات الرئاسية. كان النائب من أنصار «برستس».

- آه! إن ما يريده الرعاة هو السلطة... السلطة فقط... لا يهمهم لا وطن ولاشئ.

أكد خوسيه أوجستو:

- معك الحق يا دكتور، كل الحق...

ثم وبصوت خافت سأل النائب:

- والمشروعات يا دكتور؟ فى تحسن مستمر، أليس كذلك؟

- أحياناً... الآن تسير الأمور إلى أسوأ. لا فائدة من أن يكون المرء نائباً... ولكن فى الوقت الراهن، كل جهدى مكرس للوطن. بل إننى سألقى خطبة ضد المعارضين... يجب أن تحضرها. سوف تكون خطبة مميزة. ثم وجه الحديث إلى باولو:

- دكتور ريجيه، تعال لزيارتى. أريد أن أقدمك إلى زوجتى. إنها تعشق باريس، وتريد أن تتعرف بك. إن زوجتى سيده فاضلة...

تابع باولوريجه بعينه النائب يتعد فى الشارع: كان النائب يلقي التحيات ذات اليسار وذات اليمين، بكثير من البهجة، على طريقة السادة الكبار.

قال خوسيه أوجستو مفسراً: إن ذلك الرجل مغفل... فهو يمارس السياسة لأنه تزوج ابنة رجل ذى نفوذ. إنه لا يعدو أن يكون صهر السيد فلان. وفى مقابل ذلك، فإنه يترك زوجته تفعل ما تشاء... أما هى فلا تساوى شيئاً. وليس لديها أى احتشام...

- هل كل النواب من نفس العجينة؟

- كلهم. طغمة. لصوص... ليس لديهم وطنية حقيقية. تصيد وقع.

إن ما يلزم البرازيل هو الثورة. لقد كنت نائراً دوماً فالثورة هى التى سوف تقطع رأس الكثير من السياسيين، وهى التى سوف تسد الديون الخارجية، وتدخل البلاد فى طريق الرخاء...

- ولكن يبدو لى أن السياسيين فى المعارضة. هم كذلك نسخة طبق الأصل.

- إنهم متشابهون! ولكننى علمت من صديق قديم أنه سيصبح وزيراً للخارجية... وسأكون أنا مفوضاً! الثورة، الثورة... هل قرأت اليوم خطبة زعيم المعارضة فى الصحف؟ «ما يزال هناك برازيليون يعرفون كيف يموتون من أجل حرية الوطن». كأنها خطبة لروى... إننى من هؤلاء البرازيليين...

- أما أنا فأجد من الغباء أن يموت المرء من أجل الحرية... غباء تام...

- ذلك لأنك لست وطنياً... الموت من أجل الحرية ومن أجل... المفوضية. ضحك متحكماً. وضحك باولوريجه أيضاً وهو يتمتم:

- الأنانية سيدة العالم، سيدة العالم...

مرصية يبيعون صحف المساء صائحين:

- إقرأ «النواتي»، «الجلوبو»، «الدياريو»... «دياريو، نواتي، جلوبو...» «خطبة
النائب فرانثيسكو ريبيرو. حملة انتخابات الرئاسة. الكرنفال على الأبواب...
الكرنفال... النواتي...»

وفى الخارج، كانت الجماهير تتدافع فى بهجة واضحة. كانت المحلات
التجارية تغص بالناس يشتررون الملابس وحلى النساء الرخيصة. لقد كان
الكرنفال على الأبواب.

قال «ريجيه»:

- البرازيل هى بلد الكرنفال.

وأضاف «خوسيه أوجستو»:

- والعظماء! والعظماء...

ابتسم بفخر، ودفع ثمن المشروبات، ونهض ليذهب لمقابلة النائب
«فرانثيسكو ريبيرو» الذى مرفى هذه اللحظة بالتحديد، ليقدم له تهنتته على
«الخطبة العصماء».

- بلد العظماء...العظماء... والكرنفال...

وفى بهو الفندق، كانت مفاجأة فى انتظار باولوريجيه. كانت «جولى» هنالك
تقرأ بمجلة. أراد أن يمر بسرعة دون أن يحييها، لكنها لمحتة ونادت عليه:

- إننى جد غاضبة منك...

- لقد كنت مريضاً..، وأمضيت ليلة صعبة... ولهذا السبب لم آت. اعذرينى.

إننى أعذرك، ولكن ليكن فى علمك أننى لا أصدق. والآن، سوف نتناول
العشاء سوياً...

تناولا العشاء سوياً، بل وأكثر من ذلك، لقد رقدا معاً. وظل باولوريچيه
مشدوداً إلى جولى. فهذه المرأة المقعمة بالجنس والرغبة قد استحوزت عليه. قال
لنفسه: إنه يريد أن يعرفها تماماً، وأن يدرس نفسيته. وأخذ يحيا، بين بياض
ذراعيها، عاطفة مشبوبة. أظهر كلاهما مجهودات جبارة ليعطى للآخر شيئاً
جديداً. تحابا هذان الماجنان بضراوة. قررا أن تذهب معه إلى باهيا ليعيشا
غرامهما.

سألها ذات يوم:

- أتحييننى؟

- أحبك...

- مثل كل الآخرين، أليس كذلك؟

- أأنت غيور؟ ياللعجب...

كلا، لم يكن غيوراً، ولكنه يريد لها وحده، وألا تكون لانسان آخر. لنفسه
فقط... كلية.

وضع على الفونوغراف اسطوانة يحبها كثيراً. كانت الأغنية تقول:

فى بيت الكابوكلو (١)

واحد قليل

(١) الخلاسى المولود لأب أبيض وأم زنجية أو العكس. واللفظ يطلق داخل البرازيل لبديل على
الفلاح الفقير بصرف النظر عن أصله العرقى. (المترجم)

اثنان معقول

ثلاثة كثير...

كان يشرح لها ما تقوله هذه الأغنية البرازيلية.

- هل تشك في؟

أبتسم بحزن:

- كلا، بل أشك في نفسي...

* * *

وفي المساء الذى خرج فيه ليستمتع برؤية المدينة، جعله الضجيج المصم يفزع.
رأى الشوارع تغص بالناس، والسيارات تمر محملة بالفتيات المتكرات. جنون
عام...

أيقن باولو ريجه أنه سبت الكرنفال. استقل سيارة، وأخذ يتتبع سيارة تغص
بالفتيات. كن البنات العفيفات لأحد الكتاب الأخلاقيين المتهوسين. رش ريجه
على أجملهن قليلاً من زجاجة العطر. انفجرت في ضحك هستيرى. ثم ذهب
للرقص. جعلها زحام القاعة، والرقصة التى تقريهما، تغيب عن الوعى. قبلها
كثيراً ولامسها كثيراً. لاحظ أن الجميع يقبلون بعضهم البعض ويتلامسون.

هذا هو الكرنفال... الانتصار المطلق للغريزة وسيطرة الجسد...

صاح باولوريجيه:

- يحيا الكرنفال!

وردت القاعة كلها:

- يحيا الكرنفال!

وأخذت الأنسة العفيفة تلتصق به أكثر.

* * *

عندما خرج باولو ريجيه كانت جماعة من الخلاسيات يرقصن «السامبا» فى الشارع. بشرتهن بلون القرفة. كن يهززن أردافهن فى هياج وخلاعة. شاهد باولو هناك كل مشاعر الأجناس، ورأى نفسه يندمج فى شعبه، واستغرق فى السامبا صائحاً:

إضرِبها

إضرِبها

ألصقت خلاسية سمينية بطنها به. تشابكا بالأيدى واستمرا فى الرقص فى الشارع. حتى عاز فى الجيتار كانوا يرقصون السامبا فى بهجة محمومة كمن لم يمنح حريته إلا منذ ثلاثة أيام.

كانت الخلاسية تضغط بشفتيها على شفتى باولو ريجيه.

ود لو صاح: «تحيا البرازيل! تحيا البرازيل!» كان يشعر أنه اندمج فى روح هذا الشعب. ولم يفكر بأنه فى خلال الكرنفال فقط، يستسلم الجميع - مثلما - يفعل هو طوال حياته، لغرائزهم، ويجعلون من الجسد إله الإنسانية... عندما وصل إلى الفندق، كان النهار قد أشرق، واستيقظت الطبيعة كلها غريبة وسط هذيان تلك الليلة. وفى الغرفة لم يجد جولى. لقد خرجت بطبيعة الحال. لقد ذهبت إلى الكرنفال.

حاول أن يضحك. هيا، ما الأهمية!... إنها فى نهاية الأمر مجرد امرأة قضى معها بعض الوقت. ما الأهمية...

يا للشيطان! إن ذلك يؤلمه. إن التفكير بوجود جولى مع رجل آخر فى الفراش يؤلمه. كلا، إن ذلك مستحيل... ثار على نفسه. إن ذلك مستحيل، لماذا؟ إنها مع

آخر... مع آخر فى الفراش... ولكن ما دخله بذلك؟... إنه لا يحبها... ألا يحبها فعلاً؟ كلا، إنه يريدنا فقط ولكن الحب هو الامتلاك... إذا كان يرغب فيها فلأنه يحبها... نعم إنه يحب هذه المرأة الماجنة، ولابد أنها الآن مع آخر، ربما... وترقد معه، من يعرف؟ إنها طبعاً لا تحبه.

بدت له الغرفة خالية بدونها... وبدأ له الفراش بدون جسدها الأبيض لا يطاق...

بعد مرور بضعة أيام. قدمه خوسيه أوجستو إلى كاتب كاثوليكي. إنه زعيم الكاثوليكية على هذه الأرض. أبدى الكاتب خلال المحادثة صدقاً جعل باولو يعجب به. طلب من ريجيه أن يساهم فى مجلته. كان يريد انطباعاته عن الأجناس. ووعده باولو. وبعد عدة أيام أعطاه قصيدة «الخلاسية المجهولة»:

«أنشدُ لخلاسية مواخير سان سباستيان من ريوديه چانيرو... الخلاسية التى بلون القرفة، والتى لها تقاليد واعتزاز وطيبة، (هذه الطيبة تجعلها تفتح فخذيها الخلاسيين الممتلئين الأملسين لإشباع الغرائز النهمة للشعراء المساكين والطلاب المتشردين).

فبين فخذيها المقدسين يستريح مستقبل الوطن، ومن هناك يخرج جنس قوى، حزين، خشن، جامع، ولكنه فى أعماقه عظيم، لأنه طبيعى للغاية، ومفعم بالإثارة.

لذلك أيتها الخلاسية العطرة لبرازيلنا الأفريقية (البرازيل هى تجمع أفريقى مهاجر إلى أمريكا)، لا تكفى عن فتح فخذك للغريزة النهمة للشعراء المساكين والطلاب المتشردين فى هذه الليالى الحارة للبرازيل عندما تكون لنجوم كثيرة فى السماء، وعلى الأرض كثير من الشهوات.

قال الكاتب إن القصيدة جيدة وصادقة.

ولكن القصيدة لم تنتشر. لأنها نسيء إلى الأخلاق البرازيلية...



في الحانة، كان بعض الشباب يجلسون إلى المائدة، يثرثرون. وفي الشارع، كانت المصابيح الكهربائية تلقي بخطوط من الضوء على الظلمة المحيطة. وعند مفترق الطرق، كانت زنجيات سمينات يبعن «الأكاراجيه»^(١) و«المينجاو»^(٢). وفي ظلال الليل بدت باهيا كأطلال حضارة بدأت لتوها في الازدهار.

وضع «ريكاردو براس» القبعة على رأسه وقال:

- أنقوم بنزهة يا جماعة؟

اعترض «چيرونيمو سواريس»:

- كلا. علينا أن ننتظر «تيسيانو».

- ولكن الساعة الآن التاسعة. ومن المحتمل ألا يأتي «بيدروتيسيانو» إنه يشعر بالتعب سريعاً في الأيام الأخيرة...

أعلن صوت من خلف ريكاردو:

(١) طبخة شعبية تصنع من هريسة الفاصوليا مضافاً إليها التوابل وتقلي في زيت النخيل على هيئة أقراص. وهي أشبه شيء بالطعمية عتلتا. (المترجم)

(٢) المينجاو: نوع من الحلوى الشعبية على هيئة العصيدة تصنع من دقيق المانيهوت واللبن. (المترجم)

- ولكن من أجل الأصدقاء، لابد من التضحية!
- أوه! نيسيانو! إنك... إنك أتيت فقط لتكلبنى.
- خطب چيرونيمو على المتضدة منادياً فتاة المقهى:
- احضرى قهوة ياحبيبتى.
- وطلب «جوميز» (وهو مدير لصحيفة رديئة):
- وماء. كوب ماء...
- أخذ نيسيانو كتاباً من يدى «چيرونيمو».
- إيه يا ولدا! أقرأ الآن «خوسيه ديه آلينكار» (١)؟
- إتنى أعيد قراءته. «آلينكار» يعجبني كثيراً...
- إنه شاعر جيد... شاعر جيد...
- شاعر؟...
- نعم، شاعر. إنه «إيراسيما» قصيدة جميلة متجانسة. ولكن آلينكار روائى ردى...
- لم يوافق «ريكاردويراس» على هذا الرأى، فقد كان يجد آلينكار ذا مواهب.
- ربما لا يكون روائياً كبيراً، ولكن قراءته ممتعة.
- روائى لتلاميذ المدارس الداخلية وللأغبياء ممن يفخرون بدمائهم الهندية...
- فى هذه اللحظة، دخل «خوسيه لوبيز» مصطحباً رجلين.
- (١) خوسيه مارتينياو ديه آلينكار: كاتب وسياسى برازىلى، ولد فى سيارا (١٨٢٩ - ١٨٧٧)، رائد الرواية التاريخية، من أعماله: «جوارانا»، «إيراسيما». (المترجم)

- تيسيانو، أريد أن أقدم لك السنيور «خوسيه أوجستو»، السكرتير الأول
بالسفارة فى باريس. هذا بيدرو تيسيانو.

- تشرفنا...

- إتنى أعرفك من الاسم... فاسمك مشهور فى ريو...

- هذا لطف منك...

كان تيسيانو يمقت مراسم التعارف.

- الدكتور ريجيه، محام.

- بيدروتيسيانو صحفى على هامش الصحافة...

مد كلاهما يده إلى الآخر مصافحاً.

كان بيدرو تيسيانو فى ذلك الوقت يناهز الرابعة والستين. صحفى قديم،
وكان فى نهاية المرحلة الأخيرة من حياته على هامش الصحافة بعد أن حاز شهرة
واسعة.

كان كل وجوده يتلخص فى إطلاق العبارات البارعة، وتحدى الذوق العام.

كان معروفاً فى ريوديه چانيرو بهجائه وروحه الساخرة. ولأنه هجاء من الطراز
الأول فقد احتل موقعاَ هاماً فى صحف العاصمة. وذات يوم أعطوه منصباً كبيراً
فى أحد الأقاليم. فى باهيا، التى كانت فيما مضى تلقب بأثينا البرازيلية، كان
الغباء يزدهر فى ذلك الوقت.

قرر بيدروتيسيانو أن يقوم فى هذه الأرض الطيبة بحملة من أجل أنصار
الذكاء. بدأ بمهاجمة الأجناس المهجنة. أصبح شرساً يربع الطلاب الذين يودون

أن يصبحوا شعراء، والأدعياء الذين يوقعون المقالات الأساسية فى الصحف الباهيانية.

(لأنه فى باهيا، مدينة كل القديسين، وخاصة القديس «بونفيم»، كل الناس مشفقون. فكل حاصل على البكالوريوس هو بالضرورة كاتب. والطبيب الذى يكتب بحثاً عن مرض الزهري يطلقون عليه، على الفور، شاعراً، والقضاة يطلقون على أبحاثهم آراء أدبية، لم توات أخذ الشجاعة لمناقشتها)

* * *

كان بيدرو تيسيانو يقول إن كل الأغبياء فى باهيا يعتبرون أنفسهم شعراء. وأعظم سادة المدينة شأنًا إذا لم تنشر له أبيات رديئة فى مجلات أنيقة ستجده قد شخبط قصيدة من أربعة أبيات يحتفظ بها فى قاع درجه. وبدأت كراهية بيدرو تيسيانو. أخذت الصحف تقفل أبوابها فى وجهه شيئاً فشيئاً.

كتب فى إحدى المرات مقالة عنيفة ضد أحد السياسيين البارزين وأرغم على الاستقالة من منصبه. ولم يعد بمقدوره أن يعود إلى ريو فظل فى باهيا فقيراً، لم يفز من حياته الطويلة إلا بكراهية كل الخلاسين الباهيانيين الذين كانوا يكتبون.

أحاط به بعض الأصدقاء، عدد قليل. لعلهم آخر أصدقاء حقيقيين فى حياته. كانت متعته الكبرى تتمثل فى قدرته على الشك. ولم توات أعداؤه الشجاعة ليهاجمونه، لقد اضطروا للاعتراف بأن روح «بيدرو تيسيانو» أصبحت أكثر شباباً عن ذى قبل.

ومع الوقت، بدأ التناقض الغريب الذى يحمله اسمه يتكشف: «بيدور تيسيانو» اسم برجوازى صرف واسم لفنان. وكان هو يفسر ذلك، فأبوه كان تاجراً أمضى كل حياته يجتهد فى جمع الثروة التى تركها له. وفى الوقت الذى كان كل

الناس يعتقدون أنه شديد الثراء، كان قد أفلس ومات كمدأ. أما أمه التي كانت تمتاز بحس رقيق (كانت تكتب لأخوانها رسائل شعرية، وتحفظ في غرفتها بصورة «فيكتور هوجو») فكانت ترى أن «بيدرو» اسم بشع، ولكي تخفف منه، أضافت إليه اسم «تيسيانو». وهكذا جرى تسميته باسم «بيدرو تيسيانو تافاريس». وعندما كبر «تيسيانو» حذف «تافاريس». وكان أبوه يعتقه بسبب شغفه بالصحافة. كان أبوه لا يشعر بميل نحو حملة الأقلام. وكان يردد أن الشعر لا يطعم أحدا. أما تيسيانو الذي كانت له في ذلك الوقت بعض الميول الأدبية فقد حذف تافاريس من رسمه قائلاً إن أسرته لن تفيد من مجده. وأصبح فقط بيدروتيسيانو. والآن، فإنه يعتقد أن أباه كان على صواب، فالشعر لا يطعم أحدا... لا الشعر ولا النشر... أصبحت هذه الصداقة العزاء الوحيد في حياتهم. كانوا يشعرون أنهم متآزرون، فقد كانوا متعاضدين في البحث عن سبب وجودهم، وبعد أن عرفوا مع بيدرو تيسيانو كل المواقف المشككة، بدأوا في خوض صراع ضد الشك. كانوا يريدون اكتشاف الغاية. وكانوا يقولون: نعم، هناك غاية للحياة. وكان بيدرو تيسيانو يؤكد:

- نعم، هناك غاية وحيدة، هي الموت...

كانوا يلتفون حول بيدرو تيسيانو الذي فتنتهم روحه، فكانوا يستمدون منه القوة. وكانت لهم الجرأة والشجاعة على قول كل الحقائق. وعلى الرغم من اختلاف أحدهم عن الآخر، فإن بينهم صلة قوية توحدتهم.

أما «ريكاردو براس» الذي ولد في «بباوى» فقد هاجر إلى باهيا وهو بعد مراهق، ليجرب حظّه هناك. نجح في الالتحاق بمدرسة الزراعة، ولكنه تركها بسبب عدم كفاية موارده. وبعد جهد، حصل أخيراً على وظيفة مكتبية، ودرس في كلية الحقوق. نشر ديوان شعر. ولأن شعره نال نجاحاً فقد بدأ يكرهه. ولأنه كان محروماً من الحنان أصبح من أنصار العاطفة. كان ظمناً للحب.

وعندما كان يفكر فى غاية الحياة، فإنه يتمثل دوماً فتاة ذات عينيْن واسعتين
حزيتين كنموذج للزوجة المثالية.

أما «جوميز» مدير صحيفة «باهيا نوبا» - كما تقول بطاقات الدعوة التى
لاتفارقه قط - فكان يمتلك ذكاء حاداً يعادل الأمية التامة السائدة.

كان قد جرب حوالى خمسين مهنة، من مستخدم فى أحد المحلات إلى
محصل كمبيالات مئوسى من تحصيلها.

وأخيراً، قرر أن يصبح صحفياً. غاص فى منطقة «السيرتاو» (١) بحثاً عن
الكولونيالات رؤساء المجالس المحلية الذين كانوا يمدونه بالمعلومات عن مدنهم،
ويعطونه الصور والأموال. وصدرت الصحيفة. وهو شئ كان يعتبر مستحيلاً فى
باهيا حتى ذلك الوقت. كانت فى عددها الخامس والعشرين (ولم يكن قد صدر
منها بالفعل سوى أربعة عشر عدداً). اندمج «جوميز» فى وظيفته الجديدة
كصحفى، لايفارق أبداً سيجاره وحقيته التى يوليها أهمية تاريخية.

قال ريكاردو:

- أنت نذل «يا جوميز» ولكنك تزهو. إنك نصاب، بلا أخلاق... احتج
«جوميز» وقد اضطبغ وجهه بلون قرمزى. وتدخل «تيسانو»:

- إن مسألة الأخلاق هذه بلاهة فالرجل الموهوب لا خلاق له، وأنت يا جوميز
موهوب. لينس هناك إلا عيب وحيد لا يغتفر للإنسان: الغيباء. ابتسم جوميز فى
سعادة. وعندما تحولت المناقشة إلى عدم الرضا والبحث عن ماهية الحياة، اضطجع
فى كرسيه، وعبر سحب الدخان المتصاعد من سيجاره كانت تمر أمامه مناظر لمنزل
جميل وسيارات ونساء وكولونيالات، كولونيالات كثيرين يحملون صناديق
الأموال...

(١) السيرتاو: منطقة كبيرة، شبه مهجورة فى شمال شرق البرازيل (المترجم).

كان الأكثر تواضعاً بينهم يدعى «چيرونيمو سواريس». خلاسى فاتح اللون، وسيم، ساذج، بلا طموح أو زهو، إنسان تافه أراد تيسيانو أن يشكله على صورته وهيته.

كانت لبيدرو تيسيانو أحياناً هذه الفضاظة. وكان «چيرونيمو»، قبل أن يتعرف به، يحيا فى طمأنينة، دون مشاكل، فى سلام من لا يفكرون ولا يبدلون جهداً لكى يفكروا. ولكن تيسيانو (الذى كان يقدم نفسه كإله) سلبه صفاءه. وأصبح چيرونيمو غير راض، مضطرباً بالشك، غير قادر على السير فى الحياة. جعله تيسيانو يفقد الإيمان بالله، وكان يسخر من وطنيته. وأنهى الأمر بچيرونيمو إلى أن يصبح دمية بين يديه. وكان تيسيانو يلعب بهذه الروح ويشكلها على هواه. وكان يتسم عندما يفكر بأن سعادة هذا الإنسان أو شقاءه يتوقف عليه.

وكان أكثر هؤلاء الشباب غرابة هو «خوسيه لوبيز». كان قد حصل على شهادته منذ وقت قليل. وكانوا يعتبرونه ذا موهبة كبيرة. وكان على عكس «ريكاردو براس» لا يهتم بالعبارات الأدبية الرنانة أو التناقضات. كان مندمجاً تماماً فى الروح الجادة للجيل الطالع. كانت له مناقشات مطولة مع ريكاردو الذى يؤكد أن الثقافة مفسدة، وأن لا أحد يقرأ لكى يتثقف.

كان ريكاردو يزعم قائلاً:

- إننى أقرأ من أجل المتعة. فأنا أقرأ اليوم كتاباً لأناتول*. إنه يعجبني. وإذا كان على أن أختار غداً بين كتابين. أحدهما لأناتول والآخر «لأونامونو» ، فإننى سأقرأ كتاب أناتول، لأننى واثق أن فيه متعة.

رد خوسيه لوبيز:

(*) أنا تول فرانس.

- أما أنا فأقرأ لأونامونو.

- وأنت ياتسيانو؟

- أنا لا أقرأ إلا للكتاب الهزليين... إنه النوع الأدبي الأكثر مأساوية .

كما لا أذهب إلى السينما إلا لمشاهدة أفلام شارلى شابلن. إنها الأفلام الوحيدة التى تؤثر فىّ.

كان خوسيه لوبيز يطلق النكات أحياناً على أصدقائه. وكان يؤمن بضرورة محاربة الأدب المتحذلق وتقديس الإلحاد. لابد من عمل جاد، تحقيق شىء، إيجاد طريق فى الحياة.

قال لجوميز وهما يذرعان شوارع المدينة:

- لابد من فلسفة...

تهكم «ريكاردو براس»، وقد جعلته المعاناة يصبح مادياً، قائلاً:

لماذا لا تنضم إلى «التومائية» (١)؟

- من يدري؟ إننى ملحد صوفى... إنسان منقسم ولكتنى غير راض.

كان خوسيه لوبيز يشعر بأنه لم يحقق شيئاً، وكان لارتباطه العاطفى الشديد بأصدقائه لا يستطيع الانفصال عنهم. فهم قد حلوا محل أسرته التى لم تكن له يوماً. لم يفز بالحرية التى تتطلبها البحث عن السعادة.

كان ريكاردو يقول له:

- إنك نموذج الزوج الصالح.

(١) التومائية: نظرية توما الإكوينى اللاهوتية والفلسفية (المترجم).

- ربما، لكننى لن أتزوج. وإذا حدث وتزوجت فإننى على ثقة بأن زوجتى سوف تخوننى. لقد خلقت لأكون زوجاً مخدوعاً...

وافترت شفتاه عن ابتسامة مفعمة بالمرارة.

كان باولو ريجيه مرتبطاً بهم. وقد أصبح الآن يشارك كل مساء فى مناقشاتهم العقيمة التى كان تيسيانو يطلق عليها «الجريدة الناطقة». كان يهتم بالحركات الأدبية فى المدينة. اعتبر أعداء تيسيانو أعداءه، واعتبر أصدقاءه أصدقاء له.

أما خوسيه أوجستو فلم يعد يأت إلى المقهى. وخلال الأيام التى أمضاها فى «باهيا» لم يكل عن ذم بيدرو تيسيانو، لسبب بسيط فهم يثرثرون بحماسة عندما يأخذ خوسيه أوجستو كمادته فى التماس الاعذار والدفاع عن «روى باربوزا».

قال تيسيانو مبتسماً:

- فى باهيا، ليس هناك سوى قديسين اثنين: القديس «بونفيم» وروى باربوزا... وهى تضم أحدهما إلى قلبها بلهفة.

ثم أردف معلقاً بخيخيت:

- أما أنا فلا أحب أيهما...

صالح باولو ريجيه:

- حسناً ! حسن جداً.

ثم ضحك كثيراً من سحنة خوسيه أوجستو المذعورة.

لم يعاود الدبلوماسى الظهور. ولم يفكر فيه أحد.

* * *

فى باهيا، كان باولو ريجيه يدهش لكل شىء. كانت مدينة «توميه ديه سوزا»

تعطيه انطباعاً بأنها واحدة من هذه المدن فى سبيلها إلى الانهيار، حيث يموت كل شىء، شيئاً فشيئاً، فى أسف بالغ على نهاية الحياة.

كان قد وصل إلى باهيا فى يوم مثير، وعلى نفس السفينة كان بعض أعضاء المعارضة ذاهبين، فى قافلة للدعاية الانتخابية، يلقون الخطب فى الشمال. عندما استقل السيارة مع «جولى»، كان الخطباء يتوجهون نحو المدينة. وكانت الحشود الشعبية تقتفى أثرهم. فقد كان على رأس القافلة أحد التواب يعتبرونه أكبر خطيب فى البلاد. وأى برازيلى على استعداد لأن يضحي بحياته من أجل بضع قطرات من البلاغة.

اختلطت سيارة باولو بالموكب، وكان من المستحيل اختراق حشود الجماهير.

لم يضايقه ذلك بل كان يسليه. إنه شىء جديد. بالنسبة له أن يستمتع بمشهد الجماهير وحماستها. كان الموكب يتوقف كل خمس دقائق. وكان بعض الأشخاص المتحمسين يخطبون فى الجماهير قائلين: «لا بد من وضع بطاقات بيضاء فى صندوق الانتخابات الأسود». وكان باولو ريجيه يضحك من هذه العبارة وكان من الممكن أن تفتك به الجماهير. وعلى قمة «لاديرا» فوق الجبل توقفت الجماهير للمرة السادسة. وألقى رجل مخمور خطبة وهو يجتهد فى الحفاظ على توازنه. (ولكن أى تضحية لانقدمها للوطن؟).

وانطلق يهتف:

- إنتى أتحدث باسم أوباش الشوارع! أنا الناطق بلسان المسؤولين والعميان الذين يطلبون صدقة، باسم العاجزين (سندهم أحدهم حتى لا يسقط)، باسم وحل الطرقات، والعاهرات... وبلسانى أيها المواطنون المحترمون فإنكم توجهون التحية إلى المواخير والمستشفيات وقذارة الحوارى...

رد أكبر خطيب فى البلاد بتأثر على تحية العميان والعاجزين وبنات الهوى
ووحل الشوارع...

كان الموكب يتزلزل من جراء التحيات والصيحات.

قال باولو ريجيه لچولى:

- إنها بلاد الكرنفال يا بنيتى.

وشعر أنه غريب، غريب جداً عن شعبه. وبدأ يفكر أن باستطاعته أن يتوه فى
البرازيل...

* * *

بعد أن ترك چولى فى أحد الفنادق (لأن چولى كانت تتبعه منفعة فى سورة
من اللذة والإثارة جعلته يفقد صوابه) ذهب باولو إلى «جارسيا» حيث تقيم أمه فى
بيت ريفى كبير. لم يكن أحد فى انتظاره، ولم يخبر هو أحداً، لأنه أراد أن
يجعلها مفاجأة. طرق الباب وفتحت خادمة شابة. تأملها من شعرها إلى أخمص
قدميها وهو يتسسم. كان قلبه يخفق بين ضلوعه فبعد سبع سنوات من الغياب
سوف يرى أمه المعجوز التى يحبها. أخذه التأثر وهو يتأمل الخادمة الشابة جامدة
فى مكانها. لقد كان الابن الضال الذى يعود إلى البيت الأبوى. من يدري إن كان
سيقضى حياته هنا من الآن فصاعداً؟ إن باريس لم تكن نعتى بالنسبة له معنى
الحياة. لقد أشبع هناك غرائزه فقط. كان يشك أن الغريزة تشكل السبب الأوحى
للكائن وللوجود. كان، وهو على الباب يتسسم للخادمة، يفكر أنه ربما يجد
السعادة فى هدوء هذا البيت. وفكر فى چولى. إن چولى تبدو له كعلاقة تربطه
بباريس... سوف يهجرها.

- ماذا تريد ياسيدى؟

أفاق باولو ريبييه.

- هل تسكن هنا أرملة السنيور جود وفريدو ريبييه؟

- بلى ياسيدى.

أزاح باولو الخادمة جانباً، ثم دخل إلى البيت. عبر البيت كله تتبعه الخادمة مندهشة. فى الفناء، كانت أمه تلقى بالحبوب إلى دجاجة صفراء. (فكر ريبييه فى أنه سوف يربى دجاجاً). رآته أمه وعرفته:

- ابنى!

- أمى!

وفى نهاية فترة ما بعد الظهر، بعد أن حكى بالتفصيل حياته فى باريس لأمه ولبعض الأصدقاء الذين جاءوا يسلمون عليه، شعر أنه يفتقد جولى.



انتصر الجسد وقلده نحو چولى. الجسد، وحده الجسد. وذلك بالتحديد لأن چولى لا تعرف إلا الغريزة، ولا تعرف شيئاً آخر، ولا يكفيتها سوى إرضاء جسدها... وبأولو ربيجه يعرف الأمر تماماً، وعلى الرغم من ذلك فهو لا يستعد عن چولى. بل وأكثر من ذلك، كان يعطيها الحق. إذا كانت ترغب فيه فذلك علامة على أنها تحبه. الحب لا يتعدى إرضاء الرغبات... إنها مسألة سيكولوجية لا أكثر. ضرورة طبيعية. ومسألة العواطف هذه؟ محض اختلاق من أناس يحاولون إخفاء الحب فيجعلونه بذلك أكثر إثارة.

ومع ذلك، كانت تراوده فى بعض الأحيان أفكار غريبة. ففى تلك الأوقات، كان يستشف بعض الحقائق فى تأكيدات ريكاردو براس. ربما يكون فى الحب شىء غير الغريزة. الحب ليس فقط أن نضع أنفسنا فى السرير، جنباً إلى جنب، وجهاً لوجه، فى عراك الأذرع والعواطف.

إن رفق جورب خمسته قطعة سوداء (ارستقراطية جداً لاتنام إلا على الوسائد، ولا تأكل الفاصوليا السوداء)، وقول كلام لطيف، والغيرة من الابتسامات التى ترد على غزل المارة، والتشاجر حول اسم المولود الأول. كل ذلك أيضاً من الحب، كما كان ريكاردو يؤكد بصيحات عالية، وقد احمر وجهه. وأخذت نظارته تتأرجح على طرف أنفه.

كان يواصل محتلاً:

- بل إن ذلك هو الحب الحقيقي، الحب الوحيد... السعادة... إن إرضاء الجسد لا يمنح السعادة لأحد.
- ترهات.

هكذا أجابه ريجيه الذى لم يرد أن يوافق صديقه حتى لا يساوره الشك فى حب جولى. إذن لقد ولدنا من أجل هذا الحب... أهو غاية حياتنا؟
- بالضبط. معنى الوجود. إن الغاية توجد فى الحب. لكن فى الحب الذى أعنى: «الحب - العاطفة».

أما خوسيه لوبيز الذى كان يفصل فى كل المسائل فلم يبد موافقة ولا اعتراضاً.

أصدر حكماً وسطاً... لا بد أن يكون الحب مزيجاً من العاطفة والجنس. لم يكن موافقاً على القول بأن الحب هو غاية الحياة...

صاح ريكاردو مدافعاً عن وجهة نظره:

- ما هى إذن؟

- وهل أعرف!؟

ونجراً جيرونيمو قائلاً:

- ربما يكون الدين... الله...

واستشاط تيسيانو غضباً مما يعتبره حماقة:

- الدين، وماذا أيضاً يا بنى! إذن غايته، غايتك كإنسان ذكى هى نفس غاية كل المغفلين؟

والح جيرونيمو قائلاً:

- ولكن التومائية...

- التومائية عبارة عن تجديد للكاثوليكية. وفي النهاية فإن الكتاب التومائيين والقساوسة المثقفين سيجدون أنفسهم يشتبكون في صراع جسدى مع المتعصبات المعجزة.

انكمش جيرونيمو في كرسيه بعد أن أفحم. كان يشرب قهوته بينما يحاول إخفاء وجهه. تدخل خوسيه لوبيز لإنقاذ جيرونيمو:

- من يدري؟ ربما...

- إن الأديان هي نفاية الأساطير، إنها أكاذيب ... (١)

- ليست الحقيقة التي تمنح السعادة. إن الإنسان عليه أن يصل إلى السعادة من أقصر طريق. والدين من الممكن أن يجلب السلام، البهجة... أطلق بيدرو تيسيانو عباراته الرنانة:

- إن السعادة تكمن في الشقاء نفسه، في عدم الرضا. إن عدم الرضا هذا، هذا الشك، هو ما يجب أن تكون عليه فلسفة الإنسان الموهوب. الصوفية دائماً.
أن ينفى عندما يؤكد، ويؤكد عندما ينفى. النهاية هي ألا يصل إلى نهاية.
كل ذلك قديم ياتيسيانو، ولم يعد صالحاً اليوم... اليوم، نريد أشياء جديدة، عملاً نافعاً.

(١) رأينا أن نتقل هذه الآراء كما وردت على لسان الشخصيات، والتي يريد الكاتب بها أن يعبر عن التخطيط الفكري الذي كان سائداً في تلك الفترة في البرازيل. وإن كنا نرفض مثل هذه الآراء كلية. (المترجم)

- وهل هذه الجدية جديدة؟ قد أراد سقراط أن يكون جاداً. ارسطو والقديس توماس وغيرهما مما لا يحصى من الرجال كانوا جادين... إن غاية الفنان هي أن يحيا لا أكثر... الحياة من أجل الحياة، بالضرورة، لأننا ولدنا...

كان خوسيه لوبيز يفكر. فكر كثيراً. هل بيدرو تيسيانو على حق؟ كان يحاول أن يتحرر من تأثير الآخر. كان يتمتم:

- إنها نكات!

كان جيرونيمو سواريس في دخيلة نفسه يتأمل تيسيانو مبهوراً بمظهره الذي يبدو كشیطان، وهو يرتب الشعيرات البيضاء القليلة التي تحاول الإفلات من سجن قبعته، استعداداً للطيران.

كان ريجيه أثناء عودته يتذكر أول نزاع له مع جولي. كان ذلك أثناء الكرنفال في ريودي جانيرو. كان قد خرج وظل في الشارع حتى الساعات الأولى من الصباح وعندما عاد لم يجدها... كان يتذكر كيف كان يتوقع ذلك (يتوقع، لابل كان يدور حول نفسه...) كانت ليلة فظيعة. الفراش خال، والملاءات البيضاء كانت توحى له بأنه سرير موتى...

توقف الاتوبيس وتوقفت أفكار باولو كذلك. كان يتأمل صف البيوت ونخيل «كامبو جراندی». كان كل شيء ينضح بالحزن ما بعد الظهيرة.

كانت تجلس بجانبه فتاة نحيفة ذات عينين واسعتين ملتهايتين، تتصفح ديوان شعر. حاول أن يقرأ عنوان الديوان «أس بريما فيراس» للشاعر «كازيميرو ديه أبرو». ابتسم. لابد أن تكون هذه الفتاة رومانتيكية... لابد أن لها حباً يكتب الشعر. وربما لديها ديوان من دواوين ريكاردو براس. أراد أن يسألها عن ذلك. هم أن يفتح فمه. ولكنه وضع يده على فمه بحزم. يالها من فكرة ساذجة! من المؤكد

أن الفتاة لا تعرف من هو ريكاردو براس. ولا بد أن يكون صديقها موظفاً في محل تجارى.

عاود الأتويس المسير، واستعاد رجليه خيط أفكاره. لم تصل جولى إلا فى الصباح. فى البداية، لم يقل لها كلمة واحدة. وأخيراً سأله هى لماذا. فاستشاط غضباً وطلب منها أن تذهب إلى الحجيم! لقد أمضت الليل تضاجع آخرين، ومن المؤكد أنها ضاجعت أول شخص وقعت عليه، وها هى تسأله لماذا هو غاضب. فلتذهب إلى الشيطان...

سألها متهمكماً ضاغطاً الحروف بين أسنانه:

ـ كيف كان؟ أسود أو خلاصياً؟ قويا؟

دافعت عن نفسها بأن لا مبرر لغيرته. إن هذا سخف... فهى فى نهاية الأمر لم تضاجع أى إنسان. لم تخنه. بل كانت ترقص وتصرخ وتتلهى. وليس فى ذلك خيانة. لماذا يغضب إذن؟

هو أيضاً لم يكن يعرف. فإذا كان الحب لا يتعدى مسائل الجسد والعلاقات الجنسية فما سبب شكواه؟ إنها لم تضاجع أحداً آخر، وهو يصدقها لأنها لم تكذب عليه.

وفى الأتويس، أقر باولو بنظريات ريكاردو. لقد كان غيوراً من العبارات والابتسامات التى كانت جولى تغدقها على زملائه فى اجتماعاتهم. إن الحب لا يقف عند حدود الامتلاك... ولكن إن كان الأمر كذلك فمعناه أنها لا تحبه...

توقف الأتويس وهبطت امرأة سمينة. تنبه باولو ريجيه أنه تخطى منزله فهبط تاركاً أفكاره هناك. على باب البيت الريفى كانت أمه تنتظره متلهلة لتزف إليه ميلاد كناكيت «ريكارد ينيا» الدجاجة العجوز التى يعشقها كل أهل المنزل، والتى «ستموت من الشيخوخة».

كان باولو ريجيه يستمع لأمه تحدثه عن أبيه الذى لا يتذكره.
كان «جودوفريدو» يمثل بالنسبة له رجلاً بلا مشاكل شخصية. كان له هدف.
أحب أباه.

كان، بعد الظهر. وهو يفتش فى أدراج لم يفتحها أحد منذ سنوات، قد عثر
على دفتر يخص والده. لم تكن مذكرات بالمعنى المعروف، بل مجرد
ملاحظات... قرأ فيها:

«هل تلخص حياتى فى ذلك: العمل، العمل؟... وهل لا أكون أبداً سوى
مالك غنى؟... أليس هناك شىء آخر فى الحياة غير العمل كل يوم، والراحة كل
يوم وسط الأسرة؟...»

دمدم ريجيه بين أسنانه:

- حتى أبى، حتى أبى....

* * *

كانت جولى ممددة فى السرير تقرأ رواية لـ «ويلي»، وتدخلن سيجارة خفيفة
تركت الكتاب لأنه ممل. كانت الساعة فى يدها تشير إلى العاشرة مساءً. إن باولو
على وشك الوصول. كانت تفكر فيه بما يشبه الأشمئزاز.

عندما وصل باولو بدأت على الفور مشاجراتهما اليومية. نوبات من الغيرة لا
أساس لها. كان يريد أن يعرف كيف أمضت يومها، وماذا فعلت، وأين ذهبت...
لقد ارتكبت خطأ عندما تركت نفسها ترتبط به. فقد كانت تعتقد أن ريجيه
عقلانياً، وأنه سوف يسخر من تصرفاتها. باريس مهذب لا يبغي إلا اللذة لا أكثر.
ولكنها بدلاً من ذلك وجدت نفسها مع إنسان رومانسى، مشبوب العاطفة، فكانت
تقول له وهى تضحك:

- يا حبيبي الصغير إنك برازيلي قح!
وكانت تردد على مسامعه «مثلاً» سمعته من زنجية سمينة أمام الفندق:
- «من لا يعرفك يريد شراءك...»

أفاقت جولى منتفضة عندما دخل باولو ريبييه وقبل شفيتها الممتلئين، ولما لم تستيقظ عض شفيتها.

- أوه، نعضنى... وقد عدت متأخراً! فى منتصف الليل!
- آه يا حبيبتى! عندى لك خبر... سنذهب يوم الاثنين إلى المزرعة، فى جنوب الولاية. نحن الاثنين فقط، سنظل وحدنا... فى أتم سعادة...
- الجمعة والسبت والأحد والاثنين... وهل هى جميلة المزرعة؟ هل هناك غور وأسود؟

- لا يا عزيزتى (بضحك) لاشئ من ذلك، ولكن توجد ثعابين..
- لن أذهب إلى هناك. إننى أخاف من الثعابين...
تعب فى إقناعها بأنها لن ترى الثعابين - فالمسكينة تحيا فى الأدغال!
- وإذا لدغنى أحدها... ومت؟
تهلل ريبييه. فهى جولى أخيراً ليست جسداً فقط. إنها أيضاً عاطفة. فهى تخشى الموت لأنها لا تريد أن تتركه وحده.
قبلها بعنف.

- إن مت يا عزيزتى سأكون بائساً يائساً...
- بل أنا التى سأكون يائسة لأننى لن أستطيع العودة إلى فرنسا...

رفع باولو رأسه غاضباً وأخذ قبعته وخرج من الغرفة مندفعاً وهو يغمغم:

- الكلية! نحن دائماً إلى ماضيها...

وفي الغرفة كانت جولى تفكر:

- لقد جن، ما فى ذلك شك...

مطت شفتيها اشمئزاً وأدارت وجهها إلى الجانب الآخر ونامت.



كانت سفينة الشركة الباهيانية تتأرجح وسط البحر الواسع. وكان إقطاعيو الكاكاو يتحدثون عن الأزمة، وكان الطلاب يتناقشون حول الامتحانات ويخططون لعيد القديس «سان خوان» القادم.

كانت جولى وهى ممددة على الأريكة، سائدة رأسها على ركبتي ريجيه، تقص عليه كيف قضت فى الصين ثلاثين ليلة فى زورق يصعد النهر، وأنها كانت بمفردها مع ستة رجال من الصينيين الأقوياء. عبر باولو عن غيرة شديدة من الماضى. وعن كراهية لهؤلاء الصينيين. ستة وهى معهم، بمفردها. ستة صينيين. لم يرغب فى سماع المزيد.

أنذرته جولى بحزم:

- باولو، يا عزيزى. هل تعود إلى طبعك؟...

* * *

وصلا إلى «إيلياوس» فى ساعة مبكرة، فى الوقت المناسب لاستقلال القطار. بعد ذلك كانت المشاهد المتتابعة. شجيرات الكاكاو المحملة بالثمار، ثمار كثيرة صفراء، مليئة بالعصارة.

شغف باولو ريجيه بمهته الجديدة كإقطاعى. وكان يشرح لچولى زراعة الكاكو. كان يحدثها عن منطقته عندما كان والده لا يزال حياً، قبل أن يذهب إلى أوربا (كان ذلك منذ سنوات عديدة...)، كان يصطحبه إلى المزارع. وهناك كان يرى آلچيمىرو، رئيس العمال، ذا البنية القوية. إنه خلاسى عملاق يقال إنه قتل تسعة كحارس شخصى لجودو فريدو العجوز. فى مرات كثيرة، كان يذهب معه إلى البلدة المجاورة لمشاهدة السينما، وكانا بعد ذلك يغشيان المنازل الحفيرة للمومسات العجائز، ويختلطان بحشالة المدن، الذين يأتون إلى ذلك المكان من العالم ليحكوا عن بطولاتهم فى الحياة.

كان آلچيمىرو شجاعاً، ذا سمعة طيبة. وكان يستقبل دوماً بالترحيب. يتذكر ريجيه جيداً أنه فى إحدى المرات ذهب إلى خوانا فى الفندق، وهى خلاسية شابة، جديدة فى المهنة، وكان يميل إليها، وعرف آلچيمىرو أن فى غرفتها رجلاً آخر فقدته من النافذة «يا للخوف الذى استولى على باولو). وبعد ذلك ضربها كثيراً.

- لماذا ضربتها يا آلچيمىرو؟

- النساء يجب معاملتهن هكذا يا كولونيلى الصغير. النساء حشالة لاتساوى شيئاً...

كانت چولى تصغى باهتمام. يالهم من رجال...

- وهل لا يزال هذا الصديق يعيش فى المزرعة؟

- لا يزال. إنه دائماً رئيس العمال. ولكنه صار عجوزاً...

أصدر القطار صريراً فوق القضبان ثم توقف. هبط ريجيه ومد يده إلى چولى.

رأى آلچيمىرو الذى كان يتحرك من مكان لآخر وكأنه يبحث عن أحد.

- مرحباً آلجيمىرو!

- أرنى نفسك يا سيدى! لقد كبرت! بالأمس كنت طفلاً... من كان يتصور... إنهم فى أوربا يكبرون بسرعة.

- قل لى يا آلجيمىرو، أملك مطايا؟

- نعم يا سيدى، كأنما كنت أخمن أن يأتى أحد زيادة. أحضرت دابتين...

يمكنك أن تصطحب صديقاً..

- لقد اصطحبت صديقة...

قام باولو بالتعارف:

- مدموازيل چولى.

- آلجيمىرو رئيس العمال فى المزرعة.

قام آلجيمىرو فى نشاط بوضع سرج نسائى على بغلة چولى. كانا فرحين فوق الدابتين، يتبعهما زنجى غريب، كله عضلات، عارى الجذع. وخلف السرج كانت البندقية تغفو فى نوم برئ...

صالح آلجيمىرو:

- «أونورىو» تقدم إلى الأمام، سوف أسير فى الخلف مع السيد.

كانت چولى طوال الرحلة تبدى إعجابها بعضلات ظهر «أونورىو»، الذى كان يتقدم الركب غير مكترث. يمضغ قطعة من التبغ الأسود بين أسنانه البيضاء.

كانت الدواب معتادة على أن تقطع هذا الطريق كل يوم، حاملة أجولة الكاكاو لتتوقف بالضبط أمام البيت ذى الطلاء الأبيض، وفى الأرض الفسيحة كانت دجاجات وديوك رومية تنقر بنشاط.

عاون ألجيميرو باولو على النزول بينما أخذ «أونوريو» جولى بين ذراعيه ووضعها على الأرض. قربت رأسها الشقراء من الصدر الخرسانى المسلح للعامل الزراعى. شمت رائحة الذكر القوية.

فى تلك الليلة، عندما كان ريچيه يضمها بين ذراعين ضعيفتين لإنسان شديد التحضر، كانت تفكر بشهوانية فى عضلات «أونوريو» وفى جسده العملاق. وذاق ريچيه طعماً جديداً لقبلاتها ولس حمية زائدة فى عناقها. ونام سعيداً.

إن باولو ريچيه مفتون بفرنسية، ولأنها لانهجه فهى ترقد معه فحسب. إن الفتى يريد أن يقنع نفسه بأن الحب غريزة فقط... المسكين! المسكين! لا يريد أن يزول عنه الوهم...

أكد خوسيه لوييز:

- ولكن زوال الوهم أمر ضرورى.

- إنك تتكلم وأنت فى طمأنينة، خالى البال.

- يا براس. إن طمأنيتى هى نتيجة زوال الوهم. لقد أصبحت خالى البال لأننى لا أنتظر من الحياة شيئاً طيباً. لا شىء سوى أن تقع أشياء أسوأ مما وقع بالفعل. إننى لا أشكو.

- إذن فهذه ليست طمأنينة.

- وهل هى شىء آخر؟ إن الطمأنينة هى تزييف السعادة...

- وهل هذه نهايتنا نحن؟

- ربما، ولكن اسمع. إننى اعتقد أنها كذلك. أن تتلاءم مع الحياة.

وأن نحيا كما نحيا.

أكد تيسيانو:

- بالضبط، أن نحيا من أجل الحياة فقط.

ولكن خوسيه لوبيز اعترض:

- ولكنه يا تيسيانو تناقش معك قبل ذلك وقال إن الدين يمكن أن يمنح السعادة... والآن ينكر وجود السعادة...

- ليس ذلك بالضبط. إن السعادة لا تتوافر لبعض الناس. أنت مثلاً يا من تأمل في العصور عليها في الحب أصبت بخيبة الأمل. إن السعادة لم تخلق لك. أماجيرونيمو فهو حالة أخرى، أعطه زوجة صالحة وقليلًا من الدين والإيمان بالغيبيات ستجده سعيداً.

- هذا صحيح في حالة جيرونيمو ولكن حالتك أنت؟ إن لديك ذكاء شيطانيا وتقول إنك من الممكن أن تصبح كاثوليكيًا.

- إننى فى الحقيقة أشعر أحياناً بحاجة إلى عزاء مع الأصدقاء بقدر ما نحبهم، ربما لأننى مخلص. إننا فى حاجة إلى إله طيب يستمع إلينا ويعزينا. ولكن هذه مسألة عواطف. إن عقلى لم يهدنى بعد إلى الله ولن يهدينى قط. أما بخصوص العاطفة فإنى أقهرها.

- أنت الذى تقول إنك مطمئن!

توقفت المناقشة عند هذه النقطة عندما دخل جوميز مندفعاً كالريح يتبعه جيرونيمو. جلس وهو يلهث ونادى فتاة البار:

- اعطنى بيرة!

أعرب بيدرو تيسانو عن دهشته:

- هه؟ بيره؟ هل تسمعون، جوميز يطلب بيره. لابد أن شيئاً خطيراً جداً قد حدث، خطير للغاية.

وأخذ جوميز يشرح السبب:

- إننى متحمس!

قاطعته تيسانو:

- الحماسة دليل على السطحية.

- لانتقاطع الرجل!

صاح جوميز وهو يلهث:

- فكرة، فكرة عظيمة.

صاح ريكاردو:

- فكرة؟ لديك فكرة يا جوميز؟ احتفظ بفكرتك يا عزيزى. إنها كنز.

- إذهب إلى الجحيم!

إذا لم يعجبه ذلك فليذهب... عجباً! الرجل يجتهد فى العمل على مصلحة الجميع ويأتى براس ليتخابث...

تدخل خوسيه لوبيز معترضاً:

- لا تكونوا أغبياء! إننى مشوق لأن أعرف، احك يا جوميز...

جاءت الفتاة بالبيرة. وطلب جوميز سيجاراً:

- «أورديه كوبا»... لا بل «سويرديك ثمة ٢».

كانت دهشة تيسيانو بلا حدود.

بعد أن عاد إليه هلووه، أعلن جوميز عن فكرته وهو يضرب بقبضته على
المائدة:

- جريدة يومية! سيكون لنا جريدة يومية!

- هه؟

- جريدة؟

- ماذا يقول جوميز؟

- بلى جريدة يومية... «لاستادو دا باهيا»...

لقد كانوا يطمحون إلى امتلاك جريدة. سيصبحون سادة باهيا. ولن يستطيع
أحد أن يفعل شيئاً ضدهم. سيكسبون ثروة طائلة. والآن يعلن جوميز بأعلى
صوته بأنهم سيملكون جريدة.

لكن ريكاردو أبدى تشككاً:

- حسناً، هذه مجرد فكرة! فكرة...

- إنها فكرة فى طريق التحول إلى واقع.

تدخل لوبيز راجياً:

- فسر هذه الحكاية يا جوميز.

- الحكاية أن محافظ إحدى مدن الداخل يريد منا أن نؤسس جريدة. ستكون

جريدة المجلس المحلى للمحافظة... ستكون شركة مسترة. فكل محافظ سيساهم بمبلغ معين، ونساهم نحن بأقلامنا. ستقوم الجريدة بالدفاع عن المحافظين الحاليين وإدارتهم. ماذا تقولون؟

سيكون بيدرو تيسيانو المدير، وخوسيه لوبيز رئيس التحرير، ويشكل كل من ريكاردو وجيرونيمو هيئة التحرير. أما جوميز فسوف يقوم بوظيفة المدير المالى ليحقق الريح للجريدة. فى هذه الساعات العصية سيقوم بعمل تحقيقات صحفية. إنه مشروع...

- فى الحقيقة...

فهقه ريكاردو قائلاً:

- سوف نحطم الأوغاد، سوف نحطم الأوغاد. (الأوغاد هو الاسم الذى يطلقه على الخلاسين أعدائه). إنك عبقرى يا جوميز، أقصد أن هذا المحافظ عبقرى... واقتراح تيسيانو أن يشربوا نخباً على شرف المحافظ.

وطلب جيرونيمو سجائر مؤكداً أنها على حساب «لاستادو دا باهيا».

استغرقوا فى وضع الخطط. بدأوا يحلمون وكأنهم أصبحوا يمتلكون باهيا بين أيديهم. سوف يعملون فى البداية دون سعى وراء الريح. وماذا بعد...

قد يثرون ويصبحون مشهورين فى البلاد وينشرون كتباً. سوف يحيون أخيراً. كان خوسيه لوبيز يفكر:

- لا أصدق ذلك. من الطبيعى أن تصادفنا الإحباطات والمتاعب... وكان ريكاردو براس من جانبه يرى أن كل ذلك شىء تافه بالنسبة للحياة «العمل وحده لا يكفى. لابد من الحب...»

جوميذ وحده الذى كان راضياً. كان يضحك كثيراً مظهراً أسنانه النخرة.
انتصب وسار بخطى واسعة. كان على طريق المجد...

* * *

مضت عشرة أيام وهما فى المزرعة. كان باولو سعيداً. كان موقناً أن جولى
أصبحت ملكه تماماً. ومن ذا الذى يجرؤ على النظر إلى حبيبة السيد؟ ومن ناحية
أخرى، فلإن جولى لن تعطى فرصة لأحد من هؤلاء المتوحشين، فهم حيوانات
أكثر منهم آدميين.

كان ريچيه كل صباح يمتطى الجواد ويقوم بجولة فى القرية. كان يأتى
بالجرائد والمجلات التى كان يقرأها فى المساء، على ضوء مصباح الكيروسين، قبل
أن ينام. لم ترافقه جولى قط. وكانت ذريعتها فى ذلك أنها لاتحب أن تذهب
راكبة جواد.

فى ذلك اليوم، الذى كان يوم جمعة، ذهب ريچيه مبكراً. كانت السماء غائمة
تنذر بالمطر، ومع ذلك، واصل طريقه، وكان يحث البغلة على الإسراع. وفى
منتصف الطريق، كانت السحب قد تكاثفت وأصبحت أكثر تهديداً فقرر أن
يعود. وعندما وصل لم يجد جولى فى البيت فذهب يبحث عنها فى المنطقة
المحيطة.

ماذا تفعل إذن؟ ربما تقطف حبات اليوسفى...

كان ريچيه يسير خالى الذهن فى الممر الذى ينحدر إلى النبع حيث تنتصب
شجرة اليوسفى الكبيرة عندما التفت جانباً وبالمصادفة فرأى ما أذهله.

تحت الشجيرات كانت جولى و«اونوريو» متعانقين يتضحكان. كانت تنورتها
مرفوعة تكشف عن فخذيها الأبيضين.

لم يثر ريجيه فضيحة. عاد إلى البيت وانتظر...
عادت جولى عند الظهر. لاحظت هيئة ريجيه الصارمة. خافت أن يكون قد
اكتشف الأمر. ولكن لأنها متمرسه على هذا النوع من المواقف فلم تضطرب:

- وصلت منذ فترة طويلة يا حبيبى؟

- منذ فترة طويلة جداً.

- كنت أتنزه بالقرب من هنا. فى الأرض الزراعية.

- أعرف. جهزى حقائبك. سوف نرحل غداً.

لم تناقشه، ذهبت إلى غرفتها، وخرج هو يبحث عن ألچيمىرو.

وجده بالقرب من أحد القوارب، يشرف على تحفيف الكاكاو.

- ألچيمىرو، اطرده «أونورىو».

- ولكن ياسيدى إنه مدين للمزرعة بستمائة ألف رايس!

- تدبر طريقة لكى يسد المبلغ واطرده. وإذا لم يكن معه نقود، احبسه.

- لديه بيت فى البلدة يتفق من إيجاره على ابنته التى تتعلم فى المدرسة فى
«إلياوس».

- كم يساوى البيت؟

- حوالى خمسمائة ألف رايس.

- خذ البيت.

ثم ذهب يتبعه ألچيمىرو الذى قال بصوت خفيض:

- سيدى، إذا أردت يمكنكى أن أصفى الرجل جسدياً... أو أضربه ضرباً مبرحاً حتى يعرف أنه لا ينبغي أن ينظر إلى فراش السيد...
- كلا، خذ البيت فقط.

* * *

فى الغرفة الوحيدة بالبيت كان هناك سرير واحد. كانت جولى نائمة.
وفكر ربيحيه بأنه لا داعى لأن يقضى الليل ساهراً بسبب عاهرة فنام هو أيضاً.
كانت وهى منزوية فى ركن تكشف عن أحد ثدييها وكأنها لا تقصد. شعر بقدمه تمس قدم جولى. سرت قشعريرة فى كل جسده. أراد أن ينهض ولكنه لم يستطع.
استدارت فى السرير والتصقت به. وأخذ باولو يداعبها. أخذاً يتعانقان. ثم بدأ يمارسان الجنس.

وفى لحظة الذروة طلبت منه:

- اغفر لى...

- كلا!

دفعها بعيداً عنه ثم أطبق على رقبتها. صرخت فتركها. كانت به رغبة مجنونة لأن يهشمها. شتمها. ابتسمت. لكمها. صرخت فيه:

- يا جبان!

وضربها كثيراً ثم تركها تبكى فى السرير وخرج. كان يستنشق بنهم هواء الليل. وكان القمر فى السماء يتوارى خلف السحب.

وبدت الريح وكأنها تغنى فى أذنيه مارش الكرنفال:

اضربها

اضربها



شهر من العمل المكثف. «لاستادو دا باهيا» أخذت كل وقته. فمن المفترض أن تصدر الصحيفة خلال الأيام القليلة التالية. كان باولو ريجيه وخوسيه لوبيز لا يخرجان من قاعة التحرير. كانا يخوضان في أحاديث تأمرية. كان هذان الشخصان المتناقضان متضاهمين. لم يكن أى منها راضياً عن حياته. كانا يشعران بالحاجة إلى شئ يجهلان طبيعته. كان ينقصهما شئ. وقد انتهيا إلى الاقتناع بأن المرء إنما يحيا من أجل شئ سام. ما هو؟ كان ريكاردو براس يؤكد أنه غاية الحياة، أى السعادة، وأنه يوجد فى الحب. وكان جيرونيمو سواريس يلمح بحياء إلى أن الدين قد يكون بإمكانه إرضاء حاجة كل الناس إلى هذه الغاية.

مال باولو ريجيه إلى رأى ريكاردو. ولم يشك خوسيه لوبيز فى أن جيرونيمو على صواب، ولكنهم لم يبلغوا قط اليقين الذى بلغه الآخرون. ومن بينهم. كان يلدرو تيسيانو - وقد أصيب بمرض خطير فى عينيه، جعله يفقد الرؤية - يقسم بخبرة حياته البالغة خمسة وستين عاماً أن الإنسان الراقى ليست له غاية، إنما يحيا فقط من أجل الحياة.

- ولكن ريكاردو براس إنسان راق ومع ذلك فهو يؤكد أن الحب والزواج والحياة البرجوازية، كل ذلك يأتى بالسعادة.

- وهل أحب من قبل؟ هل كان متزوجاً؟ عندما يحب ويتزوج سيصاب

بالإحباط... كان خوسيه لوبيز فى صف تيسيانو. الحب لا يأتى بالسعادة... ثم
أضاف مزهواً:

- والشبع؟ مأساة الشبع؟

الآن، لاعزاء إلا فى الأسمى - الله والدين.

صاح بيدرو تيسيانو:

- لا أشك فى أن ذلك بإمكانه أن يوفر العزاء، ولكن الضعفاء والتافهين هم
الذين يبحثون عن العزاء. أولئك الذين لا يستطيعون مصارعة الحياة بمفردهم
تجدهم فى حاجة إلى الله.

- أعترف أننى بمفردى سوف أفشل...

- هيا هيا ! إنك تبحث عن معنى لحياتك، أليس كذلك؟ حسناً جداً. إنها
مسألة ذهنية. إنك تبحث عن شىء أسمى، هذه الغاية، لأنك غير راض بما هو
موجود... لاتريد عزاء... إن مشكلتك نابعة من العقل وليس من القلب...

- غير صحيح. إنها تتعلق بالقلب أكثر من العقل. ولتكن متأكداً أن القليل من
العقل الذى بداخلنا هو الذى يبعدنا عن السعادة... سيكون ريكاردو تعساً فى
الحب لأنه سوف يلاحظ أقل عيب فى زوجته، عندما تقوم بطهو الطعام أو
تنظيف المنزل. أما ريجيه فسوف يتتقد انعدام الشاعرية فى الدين، فى بعض
الصلوات بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة.

- حسناً! إنك تشاركنى وجهة نظرى. إذا كنتم مثل كل الآخرين فإنكم
ستجدون السعادة فى أى شىء. فى الدين، فى الحب، فى العمل، فى أى شىء.
ولكن لأنكم متسامون فلن تجدوها مطلقاً. إن السعادة تخص الحمير والمغفلين.
ومن حسن الحظ أننا نعساء.

دخل جوميز الذى كان شاهداً فى قضية فض بكاره. كان أحد أصدقائه قد
فض بكاره إحدى الفتيات، ولكى لا يتزوجها صديقه، ذهب هو إلى قسم الشرطة
وقال إن المسكينة لاتساوى حتى قرشاً مثقوباً.

- وهل حقاً لاتساوى شيئاً؟

- وهل أعرف؟ ما أعرفه أن الآخر صديقى!

- حيوان!

حكى جوميز ما حدث وهو يضحك. فمأمور الشرطة المغفل أراد منه أن يحلف
واضعاً يده على الإنجيل وأن يقول الحقيقة. ذهبوا يبحثون عن إنجيل فلم يجدوا،
فأحضروا كتاب «آدوريموس». طلب منه المأمور أن يحلف. وهنا يا أصدقاء
أفحمته...

- هكذا؟

- لقد قلت إننى يجب أن أقسم على الإنجيل، وليس هناك إنجيل. لقد
أحضرت «آدوريموس». إذا لم تجدوا «آدوريموس» فهل كنتم ستطلبون منى أن
أقسم على أول كتاب لـ «فيليسيرتو ديه كارفاليو»، أليس كذلك؟
ضحكوا.

- إنها جميلة، أليس كذلك؟

- جميلة جداً! رائعة!...

خرجوا. وكانت زنجية عجوزاً تباع الفول السودانى المحمص وقطعاً من قصب
السكر. توقف جوميز ليشتري حفنة من الفول السودانى.

- لا يلىق بمدير تجارى لجريدة أن...

- إذن إذهب أنت وازرع الفول بنفسك!

وافترقا.

- ستأتى هذا المساء ياتيسيانو؟

- لا أستطيع... عيناى لا تمكنانى... حاول تيسيانو أن يتسم ولكن أسى لا حدود له ارتسم على وجهه المغضن.

جلس فى الترام عائداً إلى المنزل يثرثر مع دونا مرسيدس جارته التى كانت تشكو من زوجها المنخرط دائماً فى السياسة (وبطبيعة الحال فى المعارضة...).

مع ما فى ذلك من المخاطرة بتلقى رصاصة أو ضربة مميتة...

- مسكين خوان... الطيب...

كانت تمسح دموعها وكأن زوجها قد مات بالفعل.

دفع تيسيانو بكرم أجره الترام. وواصل المحصل جولته منادياً:

- أيها السادة والسيدات، أجره من فضلكم!

كان تيسيانو يستمع إليه وهو يفكر فى أصدقائه يمضون حياتهم فى ترديد:

- سعادة من فضلكم!

كانت لديه قناعة بأنهم سيستهون مثله متشككين، لامبالين، متعالين على الحياة. سردت عليه دونا مرسيدس خطبة لزوجها.

عندما وصلت دونا مرسيدس إلى منتصف السلم (سلم طويل بإمكانه أن يصيبك بالسل فى شهرين) بدأت تصيح:

- دندينيا! دندينيا!

خرجت على الأبواب كل النساء الساكنات فى غرف السلم بالقرب من الطابق الرابع، حيث تسكن جماعة من البرو تستانت قريباً من السماء. كانت «ماريا ديه لورديس» تصعد السلم بأقصى سرعة لاهنة وشعرها الكستنائى مشعث وعيناها مفتوحتان على آخرهما.

- ماذا جرى يا لوردينيا؟

- ماذا جرى؟ ماذا جرى؟ سألت النسوة وقد جحظت عيونهن من الفضول واستولت عليهن رغبة مجنونة فى معرفة ما يحدث...

- هناك سينما مجاناً، اليوم!

دمدمت الإشيينة (١) بأن لا داعى لإثارة كل هذه الضجة بسبب السينما. لقد أفزعته وجعلتها تظن أن أحد معارفها قد مات.

اعتذرت «ماريا ديه لورديس» التى نادراً ما تذهب إلى السينما إلا عندما تكون مجاناً. فقد قام المسئولون عن إدارة السينما غلاظ القلوب بإلغاء عروض المساء الرائعة (كان الدخول للسيدات والفتيات مجاناً، بينما يدفع الرجال مائتى ألف رايس والأطفال ستمائة رايس). والآن فإن المالك الجديد، ولكى يعمل لنفسه شعبية، أعاد العروض المجانية (لم يستطع المالك القديم أن يواصل فقد شنت عليه نساء الحى حرباً شعواء حتى باع السينما).

أيدت جوقة النساء «ماريا ديه لورديس»:

- معها حق لوردينيا فنادرأ ما نذهب إلى السينما... وما هى الأفلام المعروضة؟

- أجابت والفرح يتراقص فى عينيها:

(١) الإشيينة هى المرأة التى تقوم بعماد الطفل فتصبح بمثابة أم له فى العماد، وكثيراً ما يسمى الطفل بإسمها. (المترجم)

- «توم ميكس» «ملك رعاية البقر». إنه فيلم رائع. وبطلة الفيلم هي... لم أعد أتذكرها... هذه الشقراء، فائقة الجمال، صاحبة القبلات الطويلة، القبلات الطويلة جداً... لا أستطيع أن أتذكر اسمها. أحسن. وهناك أيضاً «لماذا تبكى أيها المهرج». فيلم مثير... والفصل الأول من «قطار الموت»...

- رائع! رائع!

نست أيضاً أن تذكر فيلم «شووكا - شووكا».

سألتها هيلينا:

- والجريدة السينمائية؟ هل يعرضون الجريدة السينمائية؟

وهيلينا هذه شقراء فى حوالى الثلاثين جعلت الناس يلوكون سيرتها. إذ يقال إنها تتردد على البيوت المشبوهة... وغالباً ما تشاهد فى الشارع مع عشيق مختلف... كانت تريد أن تعرف إن كانت السينما ستعرض الجريدة السينمائية. كانت مغرمة بالفونس الثالث عشر ملك أسبانيا الذى يظهر دائماً فى الجريدة السينمائية.

- ولكنه متزوج يا دونا هيلينا.

- وماذا يهم؟ أن أكون حبيبة الملك ليس معناه أن... أسألى فقط دونا ماريا. (دونا ماريا امرأة عربية نحيفة جداً تستأجر الغرف المظلة على السلم وتعيد تأجيرها من الباطن. وكان المستأجرون يقولون من خلف ظهرها إنها تربح من ذلك ثروة طائلة) فى بلادها يتزوج الملك أربعين امرأة...

- أما أنا فلا أريد أن أكون حتى حبيبة أغنى رجل فى العالم.

- نقولين ذلك... لكن إذا أظهر لك حزمة أوراق مالية...

- إنك تعتقدين أن كل الناس مثلك...

- بل أكثر سوءاً... أكثر سوءاً... حتى القديسات المتظاهرات بالفضيلة...
وبدأت النساء يعملن بجد وحمية ونشاط لكي يذهبن إلى السينما في المساء...

* * *

كانت غرف السلم صغيرة للغاية... وهناك، كان يسكن أناس كثيرون! في
الواجهة، كانت دونا ماريا العربية مع صبيين قذرين مشاكسين كانا يثيران الفوضى
في الطابق والسلم بألعابهما. كانت دوناهيلينا تقول عنهما إنهما شيطانان. وفي
الغرفة المجاورة، كان يرقد عجوز، موظف في بنك. كان المسكين يعود في المساء
ويخرج في الصباح. وكان الجميع يرون فيه رجلاً طيباً... وفي غرفة صغيرة
بجواره، كانت تعيش ماريا ديه لورديس وإشييتها. كانت الاشينة دونا بومينا
تعمل بالخياطة، وكانت بما تكسبه يومياً (مبلغ هزيل يقارب خمسة آلاف رايس)
تشتري احتياجات البيت واحتياجات الابنة التي ربتها والتي كانت لاتدعها تقوم
بأى شيء سوى ترتيب الغرفة والذهاب لشراء الملابس. وفي الغرفة الأخيرة،
كانت دوناهيلينا وأختها «چورچينا» و«بييه» يمضين يومهن في الشجار. كن
يعرفن كل أنواع الألفاظ البذيئة. يعملن قليلاً. ولا أحد يعرف كيف تجد هيلينا
النقود لشراء الطعام وسداد إيجار الغرفة، بل وفوق ذلك، تشتري ملابس أنيقة.
كانت چورچينا قد بدأت فترة من البطالة. وكانت «بييه» أصغر الأخوات، والتي
لا يزال نهدها في طور التكوين، تبقى بالمنزل وحدها، تطرز جوارب للأطفال
الرضع. (كانت هذه الجوارب الرائجة تباع في أحد بوتيكات «بايكسا دوس سابا
تيروس» على أنها إنتاج فرنسى). وفي الغرفة المواجهة، كانت تسكن عربية أخرى
كان لها اسم معقد لذلك تم اختصاره إلى «فيفى». كان لدونا «فيفى» ولد لص
صار رجلاً (في عامه السابع عشر). كان يأتي فقط لبيتز منها النقود التي ينفقها

على ملذاته الفاجرة. كان يمضى وقته بين شرذمة من أفسد الفتیان الذين يحتالون على النساء المسكينات فى هضبة «لاديرا دى تابواو». وعندما يتصادف وينام فى البيت، كان يظل عارياً فى نفس الغرفة مع أمه التى تنام على الأرض (كان الابن ينام على السرير) وكان لا يكف عن الشكوى من الحياة التى يحيها. وكان يوجه سيلاً من الشتائم بالعربية. وذات مرة، فلتت منه كلمة بالبرتغالية سمعها الجيران المتربصون:

- بغلة... عجوز خبيثة...

رسمت دونا بومبينا إشارة الصليب.

وأكدت دوناهيلينا:

- هذا الصبي ممسوس. سينتهى نهاية سيئة.

وبالإضافة إلى ذلك، كانت الليلة التى يقضيها هناك لا يستطيع مخلوق أن ينام، كان يتعارك مع أمه طوال الليل... جحيم!

كانت «بييه» وحدها التى تحبه. كانت تأتى له بالحلوى ويجلسان معاً على السلم.

كان يقرص طرف ثديها الوليد وبعض أذنّها. وكانت تتركه يفعل وقد سرت فى جسدها رعدة.

كانت دونا بومبينا المدافعة عن الأخلاق تدمدم:

- فحش، بداءة!

لم تكن بومبينا قد تزوجت أبداً المسكينة، وكانت هذه الأشياء تضغط على أعصابها. كانت عصبية بشكل مثير. وكانت بسبب عصبيتها تتشاجر مع أخوتها، وكانت تجد صعوبة فى الحصول على عمل، هى وماريا ديه لورديس! مسكينة

ماريا ديه لورديس! كانت فى ريعان شبابها تلاقى كثيراً من المعاناة! وكانت أسرتها بسبب خصام مع دونا بومبينا، لا ترغب فى معرفة أى شىء عنها فكانت ماريا ديه لورديس تشاطر أشيبتها هذا العذاب الذى هو حياتها.

- إن حياتى رواية. رواية يكفى فقط كتابتها.

كانت دونا بومبينا تردد ذلك على مسامع موظف البنك المعجوز (كان شاعراً فى شبابه، نشر قصائد فى بعض صحف باهيا. كان يوقعها باسم مستعار: «فيفالدو مورينو» رواية... يكفى فقط كتابتها.

كانت ماريا ديه لورديس وقتها فى السادسة عشرة. جميلة جداً. ذات عينين واسعتين حزيتين، تبدوان وكأن غلالة من الضباب تغطيهما. وكان شعرها الذى يغطى كفتيها ذا لون متماوج بين الأشقر والكستائى.

ونهدان صغيران يتصببان تحت قميصها. وشفتان حمراوان تدعوان للتقيل. كانت لها سمعة فتاة مستقيمة. لم يُعرف لها إلا حبيب واحد، «أوسفالدو» الذى كان يحبها منذ عهد المدرسة. بل لقد تمت خطبتهما. ولكنه مات المسكين! والآن، لم يبق منه إلا بورتريه تحتفظ به ماريا ديه لورديس كآخر تذكار من «خالد الذكر أوسفالدو».

يالها من مسكينة، ماريا ديه لورديس!



فى ذلك المساء، كان باولوريچيه يتناول العشاء مع ريكاردو براس الذى حصل منذ أيام على شهادته الدراسية. تحدثنا كثيراً عن كل شىء. عن البرازيل وعن الثورة التى تملأ الصحف. كان باولوريچيه لا يعتقد بأن الثورة ستؤدى بالبلاد إلى الأحسن. وكان ريكاردو من نفس رأى. فتناقض الأمور فى كل الأحوال كان أمراً مستحيلاً. «إن البرازيل على حافة الهاوية». عبارة بليغة لكنها حقيقية. - إذن فهى تسقط فى الهاوية! سيكون أمراً طريفاً أن تكون البرازيل فى قاع الهاوية...

انفجرا فى الضحك.

كان ريكاردو، على الرغم من كل شىء، يجد فى البرازيل مشاكل هامة جدية بالدراسة.

إن أكبر مشكلة فى البرازيل هى معرفة إذا ما كان اسمها يكتب بالسين أو بالزال.

- لابل هناك مشاكل أكثر أهمية. مشكلة الشمال...

چيرونيمو سواريس الذى أتى يشارك فى وليمة براس دخل فى المناقشة:

- ينبغي أيضاً أن نفكر فى سعادة الشعب.. فى سعادة الوطن.. أبدي ريجيه تشككا:

- لا ينبغي للمرء أن يتشغل إلا بسعادته الشخصية. ويوم يكون كل فرد سعيداً، ستكون الإنسانية سعيدة... أما مسألة التضحية من أجل الصالح العام فأنا لا أقرها. والوطن... ليس لدى إحساس بالوطن. لم أشعر أنني برازيلي إلا مرتين. مرة في الكرنفال، عندما رقصت السامبا في الشارع، والمرة الأخرى عندما ضربت «جولي» بعد خيانتها لى.

- لقد كان تيسيانو على صواب، ففي مقالته التي قدم بها «لاستادور دا باهيا» استطاع بحق أن يعرف الوطن.

كان ريكاردو يتذكر المقالة بينما تلى جيرونيمو الفقرة:

. «إن الوطن هو المكان الذي يجد فيه الإنسان، كحيوان بائس منحط، ما يتغذى به، ويجد من يضاجع، امرأة كان أو رجلاً. حسب الأفضلية».

- شيء جميل!

والحق يقال فإن جوميز غضب وصاح بأن الصحيفة فقدت مصداقيتها. أما خوسيه لوبيز الذي كان يضحك فلم ينتقد إلا الجزء اللواطى. وسخر من جوميز.

- أنا، مثلاً، ولدت في البرازيل ولكن تعليمي كله كان فرنسياً... وما أنا فيه، مدين به إلى فرنسا. أيهما وطني؟ وإذا نشبت حرب بين البرازيل وفرنسا. مع أيهما أحارب؟...

سأل جيرونيمو:

- وما رأيك في المشكلة السياسية؟ إن الحركة الفاشية تتنامى والدعاية الشيوعية تغطي كل شيء.

أجاب ريكاردو وقد أخذ سميت العالم:

- لا أحبذ هذا أو ذاك. وعلى البرازيل ألا تستورد نظاماً سياسية. فحتى هذه اللحظة ونحن نستورد كل شيء، حتى الدستور، فهل نجحنا؟ علينا أن نؤمن كل شيء، من نظم الحكم إلى الموسسات... لاشيوعية ولافاشية... لا بولنديات ولافرنسيات...

- ريكارود، حذار! إن هذا الخاتم في إصبعك يسبب العدوى: البلاغة... فهأنذا شيوعى... - كاد ريجه أن يختنق بقطعة لحم وقفت في حلقه. وتدخل چيرونيمو غير مصدق:

- شيوعى، أنت؟ أيها الارستقراطي؟ قل ذلك لأحد آخر...

- ولكن يا ريجه إن الشيوعية رائعة من الناحية النظرية... لكنها فى التطبيق كارثة. المساواة، المساواة... بعد ذلك يقوم العمال الذين يحكمون، بجلد الشعب... وهذه هى الشيوعية فى التطبيق.

- من أجل ذلك بالتحديد أنا شيوعى... فالشيوعية سوف تجلد البرازيليين ثلاث مرات فى اليوم، وسوف يمشى الشعب على الصراط... فى البرازيل، أنا شيوعى عملى. إن العلاج الوحيد الناجع للبرازيليين هو السوط...
- ها، ها، ها! أنت أصبحت تيسيانو آخر.

- مسكين تيسيانو، أصبح شبه أعمى ومع ذلك يواصل السخرية من الحياة، متعالياً...

- أحياناً، أعتقد أن تيسيانو على صواب وأن حياتنا ما هى إلا سلسلة من التعاسة والإحباط... وأن السعادة لم تخلق من أجلنا...

- أن نحيا لمجرد الحياة... ربما، ولكننى لا أريد أن أسلم، لا يزال لدى أمل... طأطأ ريجه رأسه موافقاً:

- وأنا كذلك.

اعترض جيرونيمو:

- إذن فأنا مع تيسيانو.

همس ريجه إلى ريكاردو:

- وفقاً لنظريات تيسيانو يكون جيرونيمو الوحيد من بيتنا الذى يشك فى أنه سعيد....

- ذلك لأنه يخشى أن نحكم عليه بأنه أقل منا...

ثم أخذوا يتحدثون عن النساء.

- إذن فقد نسيت «جولى» تماماً يا باولو؟

- بلى. فالشهوة يا ريكاردو، وأنا أوافقك تماماً، ليست كل شىء فى الحب...

- أخيراً... ألم أقل لك؟ لو كنت تحبها أيضاً بقلبك، مانستها قط...

- بلاشك... ولكننى أعتقد أن الحب لم يعد له وجود. ربما كان موجوداً من

قبل. واليوم، لم يعد هناك إلا الشهوة... التى لا ترضينى، صحيح أن...

- لا تزال هناك حالات الحب العاطفى والزواج السعيد والوله...

- نعم، فى روايات «بيريز إسكريش».

وأمام باب السينما المضاءة. كانت المعجزة. كانت عينا «ماريا ديه لورديس» الغائمتين تبسما، وكانت شفاتها تبسما أيضاً لباولو ريجه. كان يشعر أن قلبه يغنى أغنية الفرح. وظل هناك يتأملها. يالهما من عينين! واسعتين سوداوين

حزبتين... أخلقتنا من الضباب أو من الشك؟ وهذا الشعر الكستنائي الذى يحلم بأن يكون أشقر... شلال من الشعر (نعم إنها البلاغة، نعم!) شفتان طريتان متعطشان للحب... على باب السينما، كانت النساء ملتحمات فى فوضى، وكان الشباب يتهزون هذه الفوضى ليداعبوا الفتيات.

همت ماريا ديه لورديس بالدخول إلى السينما. أسرع باولو إلى شباك التذاكر. دفع مائتى ألف رايس وترك «الفكة»... ودخل مع ماريا ديه لورديس دون أن يسمح للجسورين بأن يلمسوها كما يفعلون مع الأخريات.

داخل قاعة السينما، كان العرض قد بدأ منذ قليل. ظلت واقفة بجوار إشييتها التى كانت جالسة فى آخر مقعد فى القاعة المزدحمة - كانتا قد اتفقتا على تناوب الجلوس. كلما تغير البرنامج تتبادلان الأماكن، فتجلس إحدهما وتظل الأخرى واقفة.

وعلى الشاشة. كان «توم ميكس» الفارس النيل من الأريزونا يحقق مآثر جديرة بالعصور الوسطى، لكى يفوز بقلب حبيبته. كان باولو ريجيه الذى يقف وراء «مارياديه لورديس» يحدثها كثيراً. كان شعرها يفوح بعطر نفاذ (ثمن القنينة من هذا العطر فى بوتيك «سو أو سياس» مائتا ألف رايس. ولكن لا أحد يصدق أنه يساوى أقل من أربعين ألف رايس. فصاحب البوتيك يدعى بأن هذا العطر من البضائع المهربة...)

أما باولو فكان يشكى لها من خواء حياته والحزن الذى تجلبه عليه الوحدة. «أترغبين فى أن تكونى إلهة وجودى؟... أن تصبحى سيدة قلبى...» وأخذ يتغزل فى عينيها الجميلتين... وشعرها... وكل شيء فيها. كانت تبدو فى مظهر شرقى... وكأنها شهرزاد أتت لتقص عليه حكايات رائعة لتدخل السرور إلى قلبه. إنها جميلة جداً... لا بد أن تكون طيبة أيضاً...

كانت تبسم وهي تشاهد الفيلم. ولكنها لم تكن ترى بوضوح فعلى الشاشة، كان وجه «توم ميكس» يختلط بوجه باولو ريجيه الذى كان يواصل الحديث وراءها...

عندما تغير البرنامج أضيفت القاعة وهمت الإشبينة بالنهوض لكن مارياديه لورديس طلبت منها أن تظل جالسة: «إبقى يا إشبينة، إننى مرتاحة فى وقفتى هكذا».

خرج باولو ريجيه من السينما وروحه تفيض بالسعادة. كان يود أن يصرخ بملء رئيته: «لقد وجدت السعادة!» تبع مارياديه لورديس حتى منزلها. صعد منحدر «لاديرا دى بيلورينيو» محاذراً أن يتعرثر بالأحجار الناتئة فى الطريق.

توقفت الجماعة التى ترافق مارياديه لورديس أمام مبنى عال يوحى بأنه مقبرة. كان السلم غارقاً فى العتمة حيث لا وجود لشعاع واحد من الضوء. على الباب، كانت الجارات يتبادلن تحية المساء. أمام الباب، كان ريجيه يدخن سيجارة ويلف لورديس بنظرة متيمة مفعمة بالحب.

أما هى فكانت فى غاية الأناقة فى ثوبها المتناسق، وكانت تنظر إليه خلسة وهى نشوانة. عندما ذهبت النسوة بادرَت دونا هيلينا شبه نعسانة:

- هل نصعد؟

صعدتا، وقبل أن تغيبا فى العتمة، داعبت مارياديه لورديس بنظرتها الغائمة البهجة الوليدة لباولو ريجيه.

ظل حوالى نصف ساعة ينتظر ظهورها فى أى من نوافذ الطوابق الثلاثة. لم يكن يعرف أن هذه الغرف البائسة ليست لها نوافذ تطل على الشارع. لاشيء سوى باب يفتح على السلم القذر... وفى النهاية، أصيب بالإحباط وذهب فى الشارع يدندن...

كان الأصدقاء باستثناء بيدرو تيسيانو الذى لم تعد عيناه تجابهان ظلمة الليل - كانوا فى الحانة كالعادة. كانوا يستمعون إلى چيرونيمو سواريس الذى كان يقص حكاية مثيرة جداً عن أحد نقاد الأدب فى «باهيا» والذى فوجئ بنقود تصله من مثقف مجهول لكى يقوم بتقريظ ديوان شعر على وشك الظهور. أما ريچيه الذى كان يسبح فى بحر من البهجة فقد أبدى طيبة لم تكن معهودة فيه حتى ذلك الوقت:

- هيا. يجب ألا نهتم. بل يجب أن نسامح ونعفو... فى الحياة، علينا أن نغفر دائماً. الرجال الأسمن عليهم أن يحبوا القريين منهم...
سخر منه جوميز:

- والقريبة منهم على الأخص.

- دعك من نكاتك الغبية يا عزيزى... لقد قلت ياريجيه...

- علينا أن يحب أحدنا الآخر. وألا نبالى بمن هم ليسوا فى مستوانا...

يجب أن نغفر لهم دائماً... إن ما يفعلونه من أشياء غبية ومثيرة للهزء لن يدهشنا... لأنهم أقل منا. إنهم لا يدركون ما يفعلون...

- برافو مسيو!

- لم أكن أعرف أن لك قلباً كبيراً...

كان خوسيه لوبيز مؤيداً لرأى ريچيه - بينما اعتبره «ريكاردو» و«چيرونيمو» «إحدى نكات باولو».

تدخل ريكاردو براس:

- لا ينبغي أن نغفر للحماقة. لا ينبغي لنا، ولن نستطيع... أئبغى لى إذن أن

أغفر للغباء المطبق لهؤلاء الخلاسيين الذين يصدرون مجلة تسمى إلى قواعد اللغة
والأدب في بلادنا؟

الخطأ ليس خطأهم. فليسوا هم من خلقوا أنفسهم أغبياء.

أسف چيرونيمو لأن بيدرو تيسانو لم يكن معهم لسمع اكتشاف باولو ريجيه
للمواطن النيلة.

- ولكن عليهم أن يفهموا سطحيتهم وألا يظهروها.. إننى أعذر الأغبياء
المقتنعين بتفاهتهم. أما أولئك الذين يتصورون أن لهم قيمة فلا...

كان رأى خوسيه لوبيز هو الذى أقنع الجميع:

- أعتقد أنه ينبغي ألا نهتم بهؤلاء الناس... وألا نوليهم أهمية... لماذا تفكر
فى هؤلاء الأوغاد؟ من الأفضل أن نتجاهل وجودهم...

وأكد جوميز وهو ينفث فى الجو دخان سيجاره:

- وهل هم موجودون حقاً؟ هل وجودهم حقيقة؟ إنها يحيون ولكن لا وجود
لهم...

- لماذا أنت سعيد جداً اليوم، يا باولو؟

- ربما لأننى اليوم قابلت السعادة... من كان يعرف أننى سأكتشف الطريق
اليوم... وأن الغاية لم تكن بعيدة عن متناولى...

رد خوسيه لوبيز مندهشاً:

- هل تحب يا ريجيه؟ إنك أهل لها. إن من يقولون إنهم عقلانيون مثلك هم
أكثر الناس عاطفة.

- لا أحد يعرف أين ينتهى العقل وأين تبدأ العاطفة...

- إنك عرضة للعواطف المفاجئة... انظر لقصتك مع «جولى». لقد كنت تحب هذه المرأة.

- كنت أرغبها. وهذا كل ما فى الأمر.

- حذار يا باولو، حذار، لا تتركب حماقة...

لم يكن خوسيه لوييز ليقلق. ففى الحقيقة لم يحدث شىء. لقد غازل فى السينما فتاة جميلة رومانسية. كان يهمس فى أذنها بكلام ساذج. إنها حتى لم تتكلم. كانت تبسم فقط. صحيح أن ذلك أرضاه كثيراً. ولكن لم يكن هناك شىء ذو أهمية... وعلى الرغم من أن خوسيه لوييز أوصاه بأن يحترز فإن ريكاردو براس فعل العكس إذا نصحه بأن يواصل مقامرته.

- ربما يكون ذلك بداية سعادتك. ليس لأحد الحق فى أن يتركها تفلت... أنا شخصياً بمجرد أن تظهر لى المرأة المثالية سوف أتزوج. أؤكد لك أن سيدة السعادة هذه إذا كانت فى متناول يدى فإننى سأتشبث بها...

- دعك من ذلك! إن الحب ليس غاية الحياة بالنسبة لأحد. لا الحب ولا الزواج. إن الحب لا يقضى على عدم الرضا والقلق. هذا القلق إنه شىء أكثر جدية. أعرف أن قول تيسيانو صحيح. إن المشكلة ذهنية خالصة...

- إنك تغير رأيك بسرعة. منذ أيام كنت تؤكد أن عدم الرضا هذا هو مسألة عواطف وقلما يكون من العقل. وأنا أؤكد ما قلته ذلك اليوم يا أخى العزيز...

- إن المسألة خليط من العاطفة والعقل. ولكن العقل وحده الذى يقرر. إننى قلت أيضاً إننا لانصل إلى السعادة عن طريق العقل... وإن العاطفة قد ترضى الإنسان لكن ليس العقل. إن الحب لا يحل المشكلة وبالتالي...

- إنه يحلها.. إن الأشياء الإنسانية والطبيعية وحدها هى التى تعطى البهجة والسعادة للحياة.. هل فهمت؟

- نعم فهمت ولكتنى لا أوفق. كل ذلك شىء بسيط. نعم، الفلسفة والمعارف الفلسفية يمكنها أن تمنح بعض العزاء. بل ربما تحل المشكلة. أما أنا فأفكر في حلها على النحو التالى...

- الفلسفة، عجباً! إنها الأشياء الطبيعية وحدها: الحب والغريزة والإيمان والعمل هى التى ترضينا... الأشياء المشتركة بين الناس فقط...
- كلا. إنها الفلسفة وحدها.

أخذ ريجيه يشرح موقفه:

- لقد فشلت فى البحث عن حل فى الغريزة وفى الجسد. وها أنذا أبحث عنه فى الحب العاطفى. وإتنى لعلنى استعداد أن أبحث عنه حتى فى الدين... لكن ليس فى الفلسفة. فالفلسفة تؤدى بنا إلى فوضى رهيبه. إنها تفتح لنا خمسين درباً ومع ذلك يصعب السير فيها.
- بالضبط!

- ولكن كيف يمكنك أن تصل إلى الدين بغير الفلسفة؟ إننى أفهم أنك تصل إلى الحب عن طريق الحواس. لكن الدين؟...

- سوف أبلغه عن طريق العاطفة. دون قراءة أبحاث، ودون معرفة بـ «ماريتان» أو «القديس توماس». سأكون كاثوليكياً ولن أكون «تومائياً» قط...

- هذه مزحة يا ياولو. لن تبلغ الحب ولن تصل إلى الدين! ستكون تيسيانو آخر فى الحياة. دوغما شجاعة على تحقيق ذاتك. سوف تحيا لتكون موجوداً فحسب...

- كلا. سأحاول. لكن لماذا خوسيه لوبيز مستشار اليوم؟

- لست مستثارا. كل ما فى الأمر أن لدى مزيدا من الإحباط. بل إنى لا أؤمن حتى بالسكينة... وتيسيانو يقول إننا «شحاذون السعادة»...

- إنه على صواب. إننى أرى أن تيسيانو حل مشكلة قلقنا. وقلق العالم كله اليوم واحتفظ لنفسه بالسر... فهو لا يكثر بالحياة... ياله من سعيد!

- هو سعيد! إنه متشكك. إنه يضع نفسه فوق الحياة. يجلس فى صفوف المشاهدين ولا يحيا. إنه يعلق ويسخر ويتشدد. يدمر وهذا كل ما فى الأمر. إنها ليست سعادة إنما عبادة القلق والتعاسة. إن تيسيانو يرى أن قيمة الجمال تكمن فقط فى الألم. وبما أنه يضع الجمال فوق كل شىء فهو يحب الألم. يعشق أن يكون مهزوماً ويفخر بفشله. لقد كتب ذلك اليوم «النزعة الرمادية لشكوكي»، وهو كتاب نصفه فولتيرى^(١) ونصفه أبيقورى^(٢). لا ليس أبيقورياً فهو لا يشعر حتى بيهجة الحياة. بل يشعر باللامبالاة... ويؤكد أننا سوف نصبح مثله. وكنت أصدقه أحياناً فأصبحت كما ترانى اليوم. نقضت آرائى وأصبحت مثل الاسطوانة التى تردد مايقوله بيدرو تيسيانو على موائد الحانات...

أبدى ريبجه ملاحظة:

- من الغريب أننا نصارع بيدرو تيسيانو بينما هو أستاذنا. لقد تعلمنا معه الشك واللامبالاة. ونحن الآن نحارب الشك... وتيسيانو يشيد به.

- إنه يشيد به ولكنه يسخر منا، فهو يعرف أننا فى نهاية المطاف ستقر بأنه على صواب...

- نعم، فتحن أخيراً مديتونه لما نحن فيه. فهو قبل كل شىء صديق، لامبال أو شكاك ولكنه صديق إلى آخر المدى.

(١) فولتيرى: نسبة إلى فولتير.

(٢) أبيقورى: محب للحياة، منغمس فى اللذات.

- إن قانون الحياة عند تيسيانو هو «تعلم كيف تكون صديقاً وتعلم كيف تكون عدواً». أخذ خوسيه لوبيز يرثيه فهو شبه أعمى، المسكين! يالها من مأساة حياة هذا الرجل متعدد المواهب، الذى ينتهى هذه النهاية، فلا يستطيع أن يخرج من بيته ولا يقدر على القراءة... نهاية فظيعة!

تناولوا الكأس الأخير. ووزع بابلو ريجيه الصدقات على الشحاذين والمشردين الذين، كانوا أمام الكاتدرائية، قد فرشوا أوراقاً على الأرض - السرير الأكثر نعومة المتوفر لهم ليريحوا أجسادهم المتعبة...

أطرى جيرونيمو شفقة بابلو:

- أنت الذى كنت دوماً تحارب الصدقة هه؟ سوف تنتهى يوماً لأن تصبح من دراويش مولد القديس «بونفيم»...

ثم أضاف متحذلقاً:

- إن هؤلاء الناس يعانون من المأساة الحقيقية الوحيدة... مأساة الجوع...

قاطعه خوسيه لوبيز:

- إطلاقاً. إن مأساتنا نحن أكبر بكثير.

- إن جوعنا هو جوع الروح.

كان بابلو ريجيه يحلم بماريا ديه لورديس.

سوف يشعر بمتعة هائلة فى صباح الغد، فى مداعبة الكتاكيت وإلقاء الحبوب إلى الدجاج، داخل سور الحديقة... بالروعة الحياة البرجوازية، داخل محيط الأسرة...

وإذا تزوج؟ سيكون له ولد يعلمه أن السعادة تكمن في الحب...
ظل جالساً في الكرسي المتأرجح، يتأمل. كان يفكر في ماريا ديه لورديس،
وفي الزواج والأطفال وفي ييلدرو تيسانو.
ثم نهضه وهو يفكر:
- سيتهي بي الأمر إلى الانتحار...
تمسحت قطرة بساقه. ركلها ولكنه ندم فحملها بين يديه وسار إلى النافذة
وأخذ ييشها شكوكه.
ولكن القطرة الرزينة فضلت ألا تسدى نصحاً... رفعت رأسها الارستقراطي
ونظرت إليه بتمعن ثم أخذت تلحس قدميها. قطرة حكيمة عاقلة غسلت يديها
من مشكلة باولو ريجيه...



كان ريكاردو براس يحب الذهاب يوم الأحد إلى قداس العاشرة في الكاتدرائية. كان ينهض مبكراً، ويرتدى ثيابه بكل أناقة ممكنة. ولهذا السبب كان خوسيه لوبيز ينعى عليه ضياع اليوم. كان يصل إلى الكنيسة في الوقت الذي يكون فيه القداس قد انتهى، ويبقى في الخارج بجوار الباب يستمتع برؤية طابور الفتيات الأنبيات اللاتي جئن يمرغن ركبهن على أرضية المكان المقدس.

ذات يوم، وبينما كان هناك يرقب فتاة غاية في الرشاقة شعر بمن يجذبه من ذراعه فاستدار:

- أهو أنت، أنطونيو؟

نبادلا التحية وتعانقا. إنه المحامي أنطونيو منديس زميل دراسته، شاب غني، من أسرة معروفة.

- أنطونيو، إنك تعرف كل أولئك الفتيات. أتعرف تلك التي ترتدى الثوب الأسود؟

- طبعاً. إنها فتاة فقيرة... أقصد أنها ليست غنية. ولكنها أنيقة جداً. أتريد أن أقدمك لها؟

- نعم، أريد ذلك.

انجها إلى حيث تقف الفتاة. كانت ترتدى ملابس أنيقة جداً، وكانت شاحبة ذات عينين وسناتين. لم تكن جميلة جداً ولكنها جذابة فحسب.

- أوه، دكتور أنطونيو! كيف الحال؟

- بخير. وأنت يا دونا مرسيدس، كيف حالك؟

- بين بين...

- وأنت يا آنسة روث، كيف تسير الأمور معك؟

- لا بأس، شكراً.

- أود أن أقدم لكما صديقي الممتاز، الدكتور ريكاردو براس. لقد تخرج توأ في نفس الدفعة معي. إنه أيضاً شاعر.

- أوه، كلا يا آنستي! بل صحفي فحسب...

كانت روث تعرفه. إنه يعمل في «لاستادو دا باهيا»، أليس كذلك؟ وكانت ترى ريكاردو دائماً!

- أين ذلك يا آنستي؟

بادرت دونا مرسيدس تشرح الأمر:

- إننا جيران الدكتور بيدرو تيسيانو...

- آه ! مديري العزيز...

- ... وإنك تأتي دائماً إليه.

- هذا صحيح. إن تيسيانو صديق عزيز بالنسبة لى.

استأذن انطونيو منديس، وبقي ريكاردو. إنه ذاهب بالمصادفة لتناول الغداء مع بيدرو تيسيانو. أصطحبهما إلى الترام فصعدا. وأخذت المحادثة مجراها فى هدوء. كان ريكاردو مبتهجاً لأن روث تعرف ديوان شعره.

- إذن لقد كونت فكرة سيئة عنى.

- كلا، بالعكس. لقد أعجبنى الديوان كثيراً. أمى التى لم تعجبها إحدى القصائد.

- أى قصيدة؟

- تلك التى تسمى «باردة». إنها جافة بعض الشيء.

- فعلاً...! «باردة»... إن أصدقائى هم الذين أصروا على ضمها إلى الديوان...

كان ريكاردو يفكر فى أشعاره. لقد كان يعتبر «باردة» أحسن قصائده.

وهذه القصيدة بالذات هى التى لم تعجب أم روث...

أمام باب البيت قالت له «أن يأتى وقتما يشاء لكى يثرثروا».

- قد أسرف فى تلبية الدعوة...

- سوف نسعد بذلك...

دخل ريكاردو عند تيسيانو الذى كان يسكن غرفة تطل على الشارع لدى إحدى العائلات. ولكنه اضطر أن يرحل ليسكن مع ابنه المتزوج. لأنه كان يراه بصعوبة... كان كل جسده يؤلمه. سوف يموت عند ابنه. على الأقل لن يموت وسط الأغراب...

- تيسيانو، لقد أتيت لتناول الغداء معك.

- إن ما يكفي فرداً هنا، من الممكن أن يكفي اثنين...

* * *

كانت «لاستادو دا باهيا» تعتبر رابحة... ولكنه كان ربحاً عكسياً. كانت تكسب بالكرهية. وكان كل الناس يشترون لاستادو دا باهيا ليعرفوا من الذى ستوجه إليه السهام هذه المرة. لم تكن جريدة فضائح. بل كانت تقول الحقيقة فى شجاعة. والجريدة التى تقول الحقيقة فى باهيا، تقول أشياء أسوأ بكثير مما تقوله أكبر جريدة فضائح فى الكون.

ولولا وجود المنازعات الدائمة بين «بيدورتيسيانو» و«جوميز» لكان جوميز قد تقدم بشكل رائع. ولكن المديرين الاثنين كانت لهما مناقشات عنيفة. كان جوميز برغبته المحمومة فى الثراء يريد أن يفرض نوعاً من الرقابة على مقالات تيسيانو الذى كان بدوره يرفضها تحت أى مسمى. فكانا يتشاجران ساعات بأكملها. لم يكن جوميز يوافق على مهاجمة شخصيات يمكنها إمداد الجريدة بالمال.

وكان تيسيانو يعلن:

- لن أشارك فى جريدة تعتمد على الابتزاز.

وكان جوميز يصرخ بأعلى صوته:

- ليس ابتزازاً، إنها سياسة، عليك اللعنة!

كان خوسيه لوبيز يقوم بتهدئة الموقف، وكانت المقالة تنشر دائماً بعد أن يتم تخفيف حدتها. وكان بيدرو تيسيانو يقبل راضياً. بينما يواصل جوميز تذريره:

- بهذه الطريقة لن نربح أموالاً أبداً...

لم يكن يفكر إلا فى كسب المال، فى الثراء. ألم يكن ذلك ما يفعله الوغد؟
إنه يسكن الآن فى شارع كبير ويدخن السيجار الغالى (ويقال ولكن أحداً لا
يصدق) إنه يرتاد بيوت الدعارة...

كان يحلم وهو ينظر إلى الدخان المتصاعد من سيجاره ويقسم أنه «عندما
يملك ألفى «كونتوس» سيكون سعيداً.

* * *

أمضى باولو ريجيه عدة أيام يذهب إلى هضبة «يلورنيو»، ولكنه لم ينجح
فى رؤية ماريا ديه لورديس. وبدأت صورتها تتلاشى من ذهنه حتى كان فى عصر
أحد أيام، ذاهباً فى سيارته (كان فيما قبل يذهب ماشياً...) فرأى ماريا ديه
لورديس خارجة من بيتها. أوقف السيارة وهبط بسرعة. ابتسمت له حين رآته.

- ظننت أننى لن أراك ثانية...

- وأنا كذلك، لولا هذه المصادفة التى أتت بك الآن... إلى أين أنت ذاهب؟

- لست ذاهباً إلى أى مكان. لقد مررت متعمداً أن أراك. لقد أتيت إلى هنا
أياماً متتالية ولم أستطع أن أراك. إنك لاتطلين من النافذة...

- هنا، حيث أسكن لاتوجد نوافذ ياسيدى...

- لا تقولى سيدى. فذلك فيه من الرسميات كثير...

- حسناً. هنا حيث أسكن لا توجد نوافذ. إنها غرفة داخلية. إننى فقيرة
جداً... وأنت... تبدو غنياً جداً. سيارتك فخمة جداً! لا يمكن أبداً أن تحب فتاة
مثلى. أنا الذى كنت أظنك موظفاً فى شركة تجارية سأكون سعيدة معه!...

- لاتقولى ذلك... ما اسمك؟

- ماريا ديه لورديس سامبايو. وينادونتي «لوردينيا». وأنت، ما اسمك؟

- باولو ريچيه.

أبدت اهتماماً بما يقوم به من عمل. كانت تحب المحامين كثيراً لكن لا تبدي وداً للصحفيين. لأن دونا هيلينا (التي كانت لها خبرة في هذه المسائل) كانت تقول إن الصحفيين متقلبون جداً. أرادت أن تعرف أى المهنتين يمارس أكثر: المحاماة أم الصحافة؟...

- في الحقيقة إننى صحفي، لأننى أعمل فى الصحافة، بينما لا أمارس المحاماة. ولكننى صحفي من نوع آخر.

- متقلب؟

- لا. فعندما أحب، أحب بحق...

وأخذنا يتقابلان كل يوم. كان يحب مذاجتها وحزنها، ويحب الحب الذى تمنحه إياه بهذه الرقة التى تظهرها نحوه. لم يقابل أبداً إنساناً أحبه بهذا الشكل. وبدأ يؤمن بأن السعادة تكمن فى الحب.

رحلت الأسرة البروتستانتية التى تسكن الطابق الرابع. وفى اليوم التالى استأجرت امرأة إيطالية الطابق كله لتجعل منه «بنسيونا». وعرف باولو ريچيه فقد أخبرته ماريا ديه لورديس. طرأت له فكرة. كانا ينتزهان كالعادة وعند رجوعهما وبينما كانا واقفين على السلم جذبها إليه.

- يا عزيزتى، سأعمل لك مفاجأة فى الغد.

تلامس خداهما وقبلها كثيراً.

- أوه! باولو...

- معذرة يا خطيتي الصغيرة...

على السلم كانت چورچينا تضحك سعيدة لأنها ضبظت ماريا ديه لوردیس متلبسة. وخلال خمس دقائق كان كل الجيران قد عرفوا أن ماريا ديه لوردیس تقوم فى الأسفل بتصرفات شائنة كل يوم مع الدكتور باولو، الشاب صاحب السيارة الذى يكتب فى الجريدة.

قالت دونا هيلينا:

- إن المظاهرات بالتقوى هن الأسوأ.

وكانت دونا يومبينا فى غرفتها الكثيبة قلقة، تسمع كل شىء وبها رغبة محمومة لأن تكذبهن وتقتلهن.

عندما صعدت لوردینيا كانت كل ساكنات الطابق يضحكن هازئات. مرت لوردینيا ثابتة الأعصاب.

استجوبتها إشيبتها. كذب! چورچينا هذه تريد أن تثير فضيحة! لقد قبلها ذلك اليوم ولكنه ناداها «بخطيته الصغيرة» سوف يطلب يدها. وألقت بنفسها فى أحضان إشيبتها وظلت تبكى.

كان ريكاردو براس مهموماً. لم يعد أحد يراه تقريباً. أقام فى جريدة «لاستادو دا باهيا» مكتباً للمحاماة. وأمضى أياماً ينتظر أول «زبون». كان يريد أن يتزوج. كان يحب روث وكانت روث تحبه. ولكن راتبه الهزيل كان يمنعه من التفكير فى الزواج. كان يشقضى خمسمائة ألف رايى من البلدية بالإضافة إلى مائتى ألف

رايس من جريدة «لاستادو دا باهيا». لم تكن هذه المبالغ تكفى للعيش، وفوق ذلك فهو لن يقضى كل حياته فى الأعمال الكتابية كموظف صغير. أخذ يتألم وهو يفكر فى الوسائل التى تمكنه من الربح الوفير.

- لو أن لى عقلية لص مثل جوميز!

- الكلب! ليذهب إلى مكان آخر...

قال له والد روث حينما يصبح قادراً على إعاشة زوجته فليأت ليطلبها. ولكنه لن يتركها تموت من الجوع. كلا! وأخذ ريكاردو يشد شعره من اليأس.

- ها أنذا ألمس السعادة فتهرب منى... يالها من لعنة!

كان بيدرو تيسيانو يلقى ببعض اللعنات:

- اطلب من السماء ألا تجد المال. هكذا فقط سوف تتجنب أن تكون تعساً...

إن الزواج لن يمنحك السعادة يا ريكاردو...

- تعس، أنا؟ إننى أعرف نفسى جيداً يا بيدرو.

- ولكتنى أعرفك أكثر...

والآن، تكاد المشاغل أن تبتلعهم. ريكاردو يكرس كل وقته «لروث». وبأولو ريجيه لم يعد يفكر إلا فى ماريا ديه لورديس. وخوسيه لوبيز انكب على القراءة أكثر من ذى قبل، وأغرق نفسه فى كتب الفلسفة، فعاش صراعاً عنيفاً. كان موزعاً بين الشهوانية والروحانية. وكانت يبحث عن أصدقائه ليناقشهم لى يتحرر من عبئه. ولكن أصدقاءه لا يظهرون إلا قليلاً. كانوا مشغولين بالحب، وكانوا يذهبون إلى إدارة تحرير المجلة فقط ليقدموا مقالاتهم على عجل. وأصبح

بيدرو تيسيانو لا يطاق، وكانت سخريته تزداد مع الوقت، أجابه عندما حدثه عن
المسألة:

- إن الروحانيين لا يعرفون الروح، والماديين لا يعرفون المادة. إن الشك هو
الموقف الوحيد. ها أنت ترى القوضى الحديثة. بل إننى أنا المتشكك أنخرط فيها
وأشعر بها، ولكنها مع ذلك لا تهزمنى.

- ولكن ألا تشعر بالقلق؟ ألا تشعر أن شيئاً ينقصك؟

- أشعر بالقلق والشك. ولكنى على العكس منك، لا أبحث عن حل لهذا
القلق وهذا الشك بل لقد جعلت منهما غاية حياتى. ففيهما توجد سعادتى.
واليوم الذى أتوقف فيه عن الشك، وأعثر على اليقين، سيكون من المستحيل على
أن أحيا.

- كل ذلك قديم باتيسيانو. إن جيلك يقدر الشك، أما جيلى فيحاربه.

- وذلك يعنى ببساطة أن جيلى أرقى من جيلك.

- إن حال جيلنا هو نفس حال أدب ما قبل الحرب وأدب ما بعد الحرب...
أحدهما أدب ألفاظ والآخر أدب أفكار.

- ليس ذلك تماماً، وحتى لو كان ذلك صحيحاً فإننى مع أدب ما قبل الحرب.
فأنا عندما أقرأ مقالة فإننى لا أريد أن أعرف ما إذا كان كاتبها لديه أفكار جيدة
أم لا، أو إذا كانت المقالة مفيدة أم لا. ما أريد أن أعرفه هو ما إذا كان كاتباً أم لا،
يكتب جيداً أم لا. ولكن الحقيقة أن الأدب الأناتولى^(١) به أيضاً أفكار جيدة
ويقدم حلولاً، ويوصى بأن يشك المرء دائماً. أهذا حل أم لا؟ إنه يضع الجمال

(١) أناتولى: نسبة إلى أناتول فرانس، الكاتب الفرنسى (١٨٤٤ - ١٩٢٤). (الترجم)

فوق كل شىء. إنكم تقبلون فكرة الله لأن الله نافع. ونحن ننكرها لأننا وجدنا أنها لا تحقق مثالنا الجمالى.

- إنكم أنانيون للغاية، ذاتيون أحياناً.

- أما أنتم فتمارسون الأنانية فى أحقر صورها: النزعة الإنسانية. نحن نريد ارستقراطية الذكاء والروح، وأنتم اليوم تدافعون عن أرستقراطية القوة. إنكم مسئولون عن إفلاس الذكاء... إن الثقافة وحدها هى التى لها قيمة، لأن الثقافة وحدها هى التى لها فائدة.

- ولكنك فشلت.

- نعم، لأن كل نصر فى الحياة هو فشل فى الفن...

- لقد مضى وقت التناقضات ياتيسيانو.

- فعلاً، وجاء وقت تقديم الحساب...

* * *

استيقظت ماريا ديه لورديس وهى تغنى. كان صوتها عذباً يرن فى كل الطابق. أطلت برأسها من النافذة على سطح الجيران. وفى نافذة الطابق الرابع، كان شاب يقرأ باهتمام وعرفته -

- باولو!

- لوردينيا! ألم أقل أنني سأعمل لك مفاجأة؟ لقد استأجرت غرفة هنا لأكون أكثر قرباً منك...

وأتى فى المساء إلى السلم ليثرثر معها. كانت الظلمة تعم المكان. قبلها كثيراً. وانزلت يده تحت قميصها ووصلت إلى ثديها. وتركته يفعل. ثم تعانقا.

- باولو...-

- حبيبتي لوردينيا...-

تواترت الأيام على هذا النحو، والحق كله لا يتحدث إلا عن فضيحة حب الشاب الغنى وماريا ديه لورديس. كانت جورجينا تؤكد أنها فوجئت على السلم بأوضاع فاحشة لا توصف. وكانت تحكى لصديقاتها عن أشياء مذهلة. كيف عرفت هذه الأشياء؟

كانت تراقبهما، هى والأخريات، من خلف الباب. كان يأتى ويأخذها على ركبتيه وكان يقبلها ويدعك ثدييها. كن يتساءلن كيف لا تزال عذراء...

دمدمت دوناهيلينا:

- أليس هناك مكان آخر... المتظاهرات بالتقوى... المتظاهرات بالتقوى... لم تعر ماريا ديه لورديس أذناً لهذه الأشياء، وكذلك فعلت إشيمنتها. ولكى يخرس باولو ريجيه ألسنة الجميع طلب ماريا ديه لورديس للزواج. وقامت هى بدافع الثأر بتقديم شيكولاتة لكل سكان الطابق، واستمتعت بالتهانى المقعمة بالحسد. ولكن فى المساء، عندما تأوى إلى الفراش كانت إشيمنتها تسمعها تبكى كثيراً، ولم تكن تسألها عما بها. إنها الفرحة بطبيعة الحال. لكن ماريا ديه لورديس وحدها التى كانت تعرف لماذا تبكى. فلم تكن لديها الشجاعة لتقول لخطيئها عن ذلك الشيء الذى يعذبها...



كانت ماريا ديه لورديس بمفردها تسترجع حياتها تمر أمامها كفيلم سينمائي.
كانت تتذكر الوقت الذى أمضته مع أوسفالدو. لم تكن بلغت الخامسة عشرة.

مجرد طفلة لم يكن لها من الحياة إلا مفهوماً غامضاً مما يتعلمه التلاميذ على
مقاعد الدرس. كان أوسفالدو قد دخل عامه الثامن عشر حينما دخل لأول مرة
أحد المواخير. وعرف ما هو الجسد. لكن فى عجلة ودون تفكير. وبدأت خطوته
لماريا ديه لورديس (خطوة أطفال) تأخذ منحني آخر. وهى، بكل سذاجة، سلمت
نفسها إليه.

ذات يوم - إنها تتألم كلما تذكرت يوم سقوطها - صحبها إلى غرفته،
وخرجت من هناك سعيدة. ظلت فترة طويلة تجهل معنى ما حدث. لم تعرف إلا
عندما ذهبت لتسكن فى «بولورينيو»، ومن خلال الأحاديث مع هيلينا وجورجينا
فهمت أن البنت التى تسلم نفسها لرجل لاتستطيع الزواج، لأن التقاليد تعتبر أن
الشرف يكمن فى الجسد الذى لم يمس.

ظلت تحتفظ بسرّها فى صمت. وعندما بدأ بالووريبيجه يحبها بدأت هى
تعانى. لم تكن لديها الشجاعة لتكشف له عن سرّها الرهيب. وكان هو غيوراً

جداً... حتى من أوسفالدو الذى مات (بعد أن استهلك رثتيه فى المواخير) كان يغار - ماذا سيحدث عندما يعرف الحقيقة! ولكنها ستقول كل شيء . سوف تخبره حتماً، أجلاً أو لاحقاً... لماذا نخونه؟ لم يستطع باولو ريجيه فهم السبب وراء أحزان ماريا ديه لورديس. لم يصدق أى من أصدقائه حكاية خطوبته. ولاحتى ريكاردو براس... إنها نكتة من باولو، يردها... خاطب هو؟ ها، ها، ها

كان جوميز يضحك بجنون:

- ألا تجلدون ذلك مضحكاً؟

ومع ذلك كان باولو ريجيه خاطباً. وكان لا يريد تأجيل الزواج. سوف يتزوج فوراً حتى لايدع السعادة تفلت منه. سوف يقضى بعض الوقت فى أوروبا... كلا، ليست أوروبا. لن يعود إلى أوروبا حيث تعلم الشك. الآن وقد حل مشكلة حياته ووجد غايته، لن يعود إلى بؤرة اللامبالاة والضجر هذه... سوف يذهب إلى أرضه. بالنسبة له، لن ينتهى شهر العسل أبداً... ثم ماذا؟ بعد السعادة فى كل الأيام... ماذا بعد؟ هذه السعادة نفسها.

كان بيدرو تيسيانو يرشف قهوته فى جرعات صغيرة حين سأل:

- ألن يشبع باولو ريجيه من ذلك الهناء العائلى؟

- كلا باتيسيانو. فحتى اليوم لم أفعل شيئاً سوى البحث عن السعادة. ووجدتها. فهل سأمل منها؟

وأبدى ريكاردو براس شكوكه:

- لكن أحقاً خاطب أنت؟

- نعم يا ريكاردو. أنا خاطب منذ أيام.

ومن هى الخطيئة؟

- فتاة قابلتها فى الحياة. فقيرة جداً لكنها طيبة جداً.

وتدخل خوسيه لوبيز موضعاً:

- خلاسية من عائلة مجهولة. لم أكن أتصور أن يسقط باولو إلى هذه الدرجة من الغباء...

- اسمع ياخوسيه. سأقول لك شيئاً. إذا تكلمت ثانية عن خطيئتي بهذا الشكل، فلن تكون أى علاقة بيننا.

وبدا باولو غاضباً، ينهض بحزم ولكن لوبيز أجلسه ثانية.

- لتكن مشيئتك ياعزيزى. لن أتكلم بعد الآن عن خطيئتك فائقة الاحترام...
والآن جاء دور ريكاردو براس فى الانصراف.

- إلى أين؟

- سأقابل أحد السياسيين البارزين وصل اليوم من بلدتى. حيوان بمعنى الكلمة! وفوق ذلك، من المعارضة. لديه نفوذ فى بعض المناطق. بإمكانه أن يجد لى شيئاً. فأنا كذلك أريد أن أتزوج...

* * *

- كل مومس لها مأساة يا جيرونيمو. أتحب أن ترى؟

ونادى بيدرو يتسيانو امرأة كانت تمر فى الشارع.

- يابنتى احك لنا إذن. لى ولهذا الصديق الذى هو «آخر الرومانسيين» كيف

انتهيت إلى هذه الحياة، هذه الحياة الفظيعة التي تعتبرها النساء المتزوجات سهلة... لم تنتظر أن يرجوها ويلج عليها. بدأت تحكى وعيناها منكستان، تعتصر بين أصابعها طرف قميصها الفضفاض. يعتريها شيء من الخجل. جميلة هذه المرأة! عيناها واسعتان زائفتان. وفمها صغير تراقص فوقه ابتسامة تدعوك في عفوية. لاشيء فيها ارستقراطي. نموذج الفلاحة الجميلة.

مثل كثير من الفتيات... كانت تعيش في «نازاريه» مع والديها. كانت تخطط. وكانت تكسب المال أيضاً. وذات يوم مر رجل غني وأنيق. كان يتنزه في الحى، ولوح لها بالزواج والبيت الجميل والسيارات. فى ذلك الوقت كانت لا تزال تعتقد فى الرجال. بعد ذلك، تركها ضائعة، وأنكرها أهلها. فجاءت إلى باهيا. تلك هى قصتها، قصة كثيرات غيرها.

- لتعيشى مأساة المومسات اللاتى خلقن ليكن ربات بيوت، على كل حال يابنتى لقد لنجوت من مأساة أسوأ. وهى أن تموتى عذراء...

. ضم جيرونيمو قبضته محترقاً تيسيانو. هذا الرجل الذى يروق له أن يسخر من شقاء الآخرين. البائس...

ابتعد بيدرو تيسيانو ببطء. وظلت الفتاة بلا حراك مستغرقة فى ذكرياتها. جميلة جداً! أعطاها جيرونيمو عشرين ألف رايس، دون أن يراه تيسيانو.
- شكراً. إنك طيب جداً...

كانت الحانة مزدحمة. وكان البرجوازيون الكادحون يجلسون إلى الموائد، هنا وهناك، يجرعون كؤوسهم باستمتاع. وكان تيسيانو يتكلم بحدة متتقداً جماعة

من السياسيين. كان يتلو هجائية يسخر فيها من مشاهير «باهيا». دخل سكير إلى الحانة وتذرع بأنه لا يطلب صدقة إنما يريد أن يشرب كأس «كاشاسا»^(١)...

ناداه تيسيانو وأعطاه عشرة قروش.

- خذ أيها البائس، إنها نصف ما فى جيبي.

- لن أشرب. لا يا سيدى.

- أسكت أيها الأبله! إننى أريدك أن تشرب... يجب أن تشرب. إنك تحب الخمر، اليس كذلك؟ إذن اشرب. لابد للإنسان أن يرضى غرائزه دوماً... إننى أحب السكيرين لأنهم غير تقليديين.

خرج السكير مترنحاً دون أن يفهم.

تدخل خوسيه لوبيز ثائراً:

- إذن لابد للإنسان أن يكون عبداً لغرائزه؟

- أفضّل الإنسان ذا التقاليد؟

كان بيدرو تيسيانو فى ذلك الوقت، يسكن مع ابنه. ضعف بصره كثيراً وكان يشعر بضعف عام. الموت يقترب. لكن ذهن تيسيانو ظل كما هو. فهو دائماً الصحفى المناضل والهجاء اللاذع.

كان ابنه لا يريد أن يكتب. يجب أن يكف عن هذه الحياة. وأن يظل بالبيت لا يخرج، وأن يترك الثروة اليومية. لماذا يواصل الكتابة، كل يوم مقال أو حتى تعليق؟ ومع ذلك يحصل على أجر هزيل... كان جوميز يسرقهم. يدفع لهم جميعاً أجراً هزلاً. هم الذين يساعدونه كأصدقاء بينما هو يشرى. أخذ تيسيانو يشكو:

(١) مشروب كحولى قوى يقطر من قصب السكر. (المترجم)

- عندما كنت فى الثامنة عشرة، كان أبى يضايقنى بسبب ميولى الأدبية، والآن فإن ابنى هو الذى...

انضم إليهم ريكاردو براس الذى اصطحب لتوه السياسى المشهور ابن بلدته. ذهب الرجل مسروراً. لأن مقالة «لاستادو دا باهيا» مع الصورة حققت نجاحاً.

- لقد وعدنى الرجل بكل شىء! ستفرح روث...

- إنكما مغفلين، أنت وريجييه! هيا تزوجا، وادخلا فى التضاهة التامة. لنكن صرحباء، ستزوجان لتمتلكا خطيتكما ولكن بمجرد أن يتم إشباع غريزة الجنس...

- إنك تخطئ تماماً إذا فكرت بأننا نتزوج فقط لنتمكن من مضاجعة خطيتنا. إننا نتزوج لأننا فى حاجة إلى الحنان. إننا نريد الجنس والعاطفة...

- قبل أن تشبع غريزة الجنس ستكون قد أشبعت عاطفتك. لقد كنت أنا متزوجاً و...

- إطلاقاً! إننا نشعر أن هذا الحب هو غايتنا.

كان خوسيه لوييز يخطط جبهته. لقد أحضر شيئاً يريد أن يريه إياه. أخذ يستجمع نفسه ثم بدأ يقرأ:

«الآنسة عاطفة. الآنسة عاطفة، أحبك، أحبك كثيراً، أعبدك، لماذا تهرب عيناك من عيني عندما نتحدث؟ لماذا هذا الحزن الذى يجعل خديك شاحبين أحياناً! لماذا لا تحكى لى كل شىء، وتفتحن لى قلبك على مصراعيه؟ آنسة عاطفة تعرفين تماماً أننى أحبك كثيراً...»

- من الذى كتب هذا الهراء؟

- كلام مبتذل...

- إنها يوميات الغد.

- أنت الذى كتبت ذلك ياريكاردو؟

- لا بل ريجيه. لقد طلب منى أن أكتب يوميات الغد.

- باولو ريجيه، الهجاء اللاذع... العنيف جداً...؟

- نعم. باولو ريجيه الذى كتب ذات مرة «قصيدة الخلاسية المجهولة».

- يا للشفقة!

- لقد ضاع هذا الولد...

عندما قرأت ماريا ديه لورديس يوميات باولو ظلت مستتدة بمرفقيها على المنضدة وعيناها مثبتتان على الصحيفة حيث كانت دموعها تتساقط.

- سأحكى له عن كل شيء. لاشيء أفعله غير ذلك. إننى أعرف أنه لن يغفر لى، ولكنى سأقول كل شيء. لا بد من ذلك.

وسرعان ما فقدت شجاعته. فقد كان غيوراً جداً... كان يكفى أن تنظر لرجل آخر، ولو بدون قصد، حتى تثور ثائرتة. كانت تحبه كثيراً. يا إلهى ! إن لم يغفر لها (كان غيوراً جداً من الماضى!) ستموت من الألم. لن تصمد.

- فيما تفكرين يا لوردينيا؟

- أوه، «چارديلينا» ! أهذه أنت؟

كانت أخت لوردينيا (لم تتذكرها أبداً قبل خطبتها لباولو ريجيه، الذى هو فى نهاية الأمر شاب غنى. والآن فإنها تعاود زيارتها باستمرار) قد أنهت دراستها كمعلمة. وكانت تحب كتب ماريا ديه لورديس ومجلاتها.

كانت «چارديليينا» تتعجب من أن باولو ريچيه لا يريد لأختها أن تغادر هذا المكان الموبوء.

- لقد أراد. لقد أراد أن يكون لنا بيتاً. لكن «ديندينيا» بوساوسها هي التي رفضت.

- طبعاً. وماذا كان عليها أن تقول؟ عندما يتزوج نعم. في الوقت الحاضر أنا التي أقوم بمصاريف البيت. وهو، مع ذلك، يعرف أنني على صواب.
- ومتى يتم هذا الزواج؟

- خلال الشهرين القادمين. إن باولو يريد أن يتزوج فجأة، دون احتفال، ودون أن يخبر أحداً...

- ياله من رجل غريب الأطوار! وبعد ذلك، أين ستمضيان شهر العسل؟
- لا أعرف. ربما في باريس، وربما في الريف...
- أسمحين...

قبل باولو ريچيه يد لوردينيا ثم قبل يد دونا بومينيا وسلم على چارديليينا.
- كيف حالك يا دكتور باولو؟

- بخير، وأنت كيف حالك؟

كان باولو لا يطيق أخت ماريا ديه لورديس. كان يرى أن لها رأساً متآمر.
وأنف بيقاء. وكان يشرح لخطيبته أن من لهم أنف بيقاء ليسوا ضعافاً.

- كنا نتحدث عن زواجكما يا دكتور. متى إذن؟

- هذه الأيام. سوف تعرفين يوم زواجنا..

- ألن تدعوانى إلى حفل زواجكما.
- لا، لسبب بسيط، فلن يكون هناك احتفال. فمجرد أن نتزوج سوف نرحل.
- يا لفرابة الرجل، يا إلهى! وأين ستذهبان بعد ذلك؟
- إلى الولايات المتحدة لنقوم بجولة... لم أر الولايات المتحدة. وهذه فرصة.
تمتت چارديلينا بتفنج:

- إننى أفضل أوربا، وأنت يا لورديتيا؟
- أنا؟ مايريده باولو.
نظر كلاهما للآخر. فى عينيها حزن كبير. وفى عينيه فرح كبير...
السعادة بعيدة جداً... السعادة قريبة جداً.

* * *

أعلن ريكاردو براس:
- سوف أذهب لأنام.
وأيده خوسيه لوبيز وهو ينهض نعلان واضعاً يده على فمه الذى يتأب:
- وأنا أيضاً.
كان جوميز قد انسحب منذ قليل. لأنه ذاهب فى الغد فى رحلة إلى
«السيرتاو» فقد ذهب إلى منزله مبكراً.
واقترح ريجيه:
- سوف اصطحبك فى سيارتى.

- وأنت يا جيرونيمو ألن تأتي معنا؟

- لا، سوف أبقى. سأحج اليوم إلى الشوارع... إننى عاطفى...

ابتعدت السيارة وعندما اختفت عند منحنى الشارع. بدأ جيرونيمو يمشى على غير هدى. كان يستعرض حياته قبل أن يقابل تيسانو ويعد أن قابله. كانت حياته فيما قبل سعيدة جداً... كان يعيش حياة أولئك الذين ليست لديهم مشاكل. فيما بعد، حطم هذا الرجل الغريب كل مقدساته - الله والوطن والحب. لم يكن يعرف ما إذا كان عليه أن يشكر بيدرو تيسانو. ولكن الحقيقة أنه بدأ يشعر بأنه تعس. وكانت رغبة عارمة فى أن يعود إلى حياته الأولى تعتصره. ولكنه كان يخاف من أن يوصف بالنافه... نادته امرأة من النافذة فاستدار، وعرفها. إنها المومس التى تحدثنا معها بعد الظهر. دخل.

- ألم تعرفنى؟ لقد تذكرتك على الفور بمجرد أن رأيتك.

وسحبته إلى غرفة النوم.

تحدثنا معا. كانت لاتطبق هذه الحياة، فكل الناس يسيئون معاملتها، وفوق ذلك فهى لم تتعلم أن تبسم للرجال، ولذلك فهى لاتكسب ما يقيم أودها. واستولت شفقة كبيرة على قلب جيرونيمو سواريس. نسى أصدقائه، ونسى بيدرو تيسانو وسخرياته. نسى أن «الشفقة على الآخرين معناها عدم الشفقة على أنفسنا». ونسى أنه «لايجب أن نعانى من أجل الآخرين، وألا نتألم لألمهم. فالأنا تكفينا».

كانت الفتاة تبكى مسندة رأسها على كتفه. أعطاهما مائة ألف رايس وطلب إليها ألا تضاجع أحداً تلك الليلة. دهشت من أنه لايريد أن يبقى، وأنه حتى لم يذهب معها إلى القراش.

- سأعود غداً.

. - إنك طيب جداً...

(طيب جداً لدرجة أنها خجلت من أن تقبله في فمه، وهو ما كانت تفعله مع كل الرجال. قبلت يديه. وكان هو الذى قبل شفيتها طويلاً.)

كانت السماء مرصعة بالنجوم، وبدأ القمر المكتمل كممثلة عجوز وسط فتيات شبابت.

كان چيرونيمو يشعر أنه سعيد. بدأ فى تلك الليلة يعود إلى حياته الماضية. وبدأ يتحرر من تيسيانو. إذا نجح فى ذلك فسوف يبلغ أقصى درجات السعادة. كانت لديه كل مقومات ذلك. كان طيباً وغيباً...



أثار الإعلان فضيحة. كانت المدينة كلها تتكلم عنه. بعض السادة المهمين من ذوى الياقات البيضاء (كان هناك بعض الناس تلتصق هيتهم بالياقات المنشاة التي يرتدونها) أدانوا بأعلى صوتهم هذه الإهانة التي لحقت كل العباقرة فى البرازيل. وعندما سمع بها الطلاب نظموا مظاهرة عداية ضد جريدة «لاستادو داباهيا». ولكنهم عندما علموا أنهم سيواجهون بالرصاص عدلوا عنها.

إن الطلاب، أمل الأمة البرازيلية، لا يهاجمون إلا المساكين البؤساء، الذين لا يقدرّون على الرد. أحدث الإعلان ضجة كبيرة لدرجة أن أحد النقاد فى «ريو» كتب مقالاً يعلق عليه. لقد وصفه بأنه رائع. وفى مقابل صوت العاصمة توارت «داباهيا» واكتفت بالهمهمة. كل ذلك بسبب إعلان نشرته «لاستادو داباهيا» فى ربيع صفحة، تحت عنوان بالبنت العريض:

«نريد رجلاً عبقرى للفن البرازيلى»

بلغت أصداء الإعلان حتى منطقة «السيرتاو» حيث كان جوميز يتجول. وفى إحدى المدن رفض المحافظ أن يعطى الإعلانات المحلية إلى جريدة «لاستادو داباهيا». فالجريدة قامت بحملة ضد الوطن ونسيت أن «داباهيا»، دون ذكر بقية البرازيل، بها رجال عباقرة. تعب جوميز فى الحصول على الإعلانات. عاد غاضباً

إلى العاصمة فى وقت كان تيسبانو على وشك أن يدمر له الجريدة. لا يمكن أن تمر الأمور هكذا.. إطلاقاً...

قال له باولو ريجيه:

- سوف نتزوج السبت القادم، ونرحل فى نفس المساء إلى نيويورك... كانت ماريا ديه لورديس ملتصقة بكتفه، تبكى.

- ماذا هناك يا لوردينيا؟ أأست سعيدة؟

- بلى، يا باولو. لكن...

- ... لكن...

- ... أريد أن أقول لك شيئاً.

- قولى يا عزيزتى.

- ليس الآن. هذا المساء. فهنا كثير من الناس. هذا المساء سنقوم بتزفة وسوف أقول لك...

أمضى ماتبقى من فترة مابعد الظهيرة فى تلهف مجنون. ماذا لديها من أمر خطير لتقوله له؟ لقد كان يشك دوماً فى أنها تحتفظ بسر. وهذا الحزن... وشعر باولو ريجيه أنه فريسة لقلق بالغ. وبدأ يخشى أن يفقد السعادة القريبة منه، وأن يرى نفسه من جديد فى الفوضى بلا هدف. كانت ماريا ديه لورديس تبكى طوال فترة مابعد الظهيرة. فمصيرها سوف يتقرر. سعادتها أو شقاؤها. وجاءها هاجس بأنه لن يغفر لها.

كانت الليلة أجمل من أى ليلة أخرى. ليلة تناسب العشاق. وقبل أن يخرجوا

تبادلا قبلاط طويلة على السلم. كان لديمها إحساس بأنهما يقبلان بعضهما
لآخر مرة. مثباً طوياً فى الشارع دون أن ينبسا بكلمة. كان قلقاً بسبب ما وعدته
ماريا ديه لورديس بأن تكشف له عنه. لم تواتها الشجاعة لتحكى له عن كل
شئ. فقرر هو أن يبادرها:

- إحك يا حبيبتى الصغيرة...

حكّت له وهى تنتحب قصة حبها مع أوسفالدو، وكيف كانت ساذجة فسلمت
له نفسها دون أن تعى. إنها تستحق الغفران ولكنها لم تقل له ذلك لأنها تخشى
ألا يغفر لها. هل سىغفر لها؟

أما هو الذى كان يتألم ويعانى فقد طلب إليها أن تحكى كل شئ باختصار
شديد. شعر أن أضواء المدينة تنطفئ شيئاً فشيئاً، وأن الظلمة تزحف رويداً
رويداً داخل روحه. السعادة تتلاشى. كانت المدينة كلها سوداء. تعلقت ماريا ديه
لورديس بعنقه تقبل شفّتيه وتعضهما. عاد الضوء بعنف إلى المصابيح الكهربية.
ولكن روح باولو ريجيه لا تزال فى الظلمة.

قال وهو يشبه السكران:

- هيا بنا...

اصطحبها إلى بيتها وتركها على السلم تبكى.

ورحل يستنشق الهواء بملء رئتيه، وبه رغبة شديدة فى أن يضرب المارة، وأن
يصبق فى وجه النساء، وأن يتلفظ بألفاظ قبيحة...

استغرب أصدقاءه هيئته.

سألوه ماذا به. «لاشئ، لاشئ»، وليتركوه لوجه الله. طلب من النادلة كأس

«كاشامسا». شرب كثيراً. وفي نهاية السهرة بكى من الغضب، وحكى لأصدقائه عن تعاسته. سأله جبرونيماو:

-والآن ماذا ستفعل؟

- وهل أعرف! هل أعرف! هل لى رأس لأفكر؟.. لا أريد أن أفكر فيما سأفعل!

ورأى ريكاردو أن أفضل شيء يفعله هو أن يتزوج. أفضل حل. لاشك أن ماريا ديه لوردیس مخلصه. عليه أن يتزوج. ألم يكن ضد التقاليد؟ واعترض خوسيه لوبيز:

- لا يمكن هزيمة التقاليد بهذه السهولة. فهناك تسعة عشر قرناً وراءها! إنها ميراث فظيع...

- إنك على صواب ياخوسيه. لا أستطيع أن أهزم التقاليد. أشعر أنها جديرة بحبى. لكنى غير قادر على الزواج منها. إننى حيوان، تركت سعادتى تغلت منى...

اصطحبوه إلى بيته. وظل معه ريكاردو براس لينام هناك، فقد يرتكب حماقة...

تحدثنا بقية الليل. قرر باولو ريجيه أن يذهب فى الغد إلى ماريا ديه لوردیس ويتزوجها. لم لا؟ ما شأنه بالماضى؟ كان يصارع، ومع ذلك شعر باستحالة أن يقطع الصلة بالماضى وأن يستأصله من ذاكرته. لماذا حكى له عن كل شيء؟ لماذا لم تتركه على عماه؟ كان بإمكانهما أن يكونا سعيدين للغاية...

وفى الغد، مر عدة مرات أمام بيته، لكن لم تواته الشجاعة ليدخل. قال لخوسيه لوبيز:

- إننى بائس! تعس! ضيعت سعادتى بسبب خطأى! لأننى لم ألحج فى هزيمة التقاليد! أبله، مغفل أنا...

كان جوميز فى حاجة إلى من يذهب إلى «ريو» لاجراء مقابلات مع زعماء
الحركة الثورية الظافرة. وعرض باولو أن يذهب وعلى نفقته. ليس هناك أفضل
من ذلك بالنسبة للجريدة!

ورحل باولو ريچيه.

وفى «ريو ديه چانيرو» طاف بكل الكباريهات، وعاش فى عريضة دائمة لكى
ينسى مارياديه لورديس. كان وجهها يتراءى له فى قاع الكأس التى يشربها
يتضاءل ويتضاءل...

وفى عصر أحد الأيام، قابل أحد معارفه القدامى، الدبلوماسى خوسيه أوجستو
الذى كان يسير فى الشارع يطوح بعكازه.

ناداه باولو ريچيه. كان فى حاجة إلى مثل ذلك الرجل بالتحديد، غيبى
ومغرور، ليثرثر ويتسلى وينسى.

زيت الدبلوماسى على كتفه بحرارة.

- أنت هنا يادكتور ريچيه؟ فى نزهة؟

- لا. لقد أتيت لأجرى مقابلات مع زعماء الثورة. الآن أنت مطمئن، أليس
كذلك يادكتور خوسيه أوجستو؟

- كيف ذلك؟

- مع انتصار الحركة الثورية ستحصل على وظيفتك كسفير.

رجاه خوسيه أوجستو ألا يحدثه عن ذلك، لقد ذهبت مخططاته سدى. لم
يكن ذلك بسبب صديقه الوزير. أما هو، وفى ظل الضربات التى لحقت بالعمالين
بالوزارات، فيعتقد أنه سعيد بأن يبقى سكرتيراً للسفارة. وأتى بإشارة تنم عن
الغضب.

- لقد جاءت الثورة بالإحباط. ونحن الوطنيين الحقيقيين الذين أيدناها أصبنا بالإحباط. لا بد من ثورة أخرى لكن عليها هذه المرة أن تقطع رأس كثير من الناس...

وبحركة مسرحية همس فى أذن باولو ريبييه بالكلمات الأخيرة. إن الظروف الحالية لن تدوم طويلاً. إن الجيش يثور لأقل...

لاحظ باولو ريبييه أن الشعب لم يكن راضياً. ولكن ألم يطالب الشعب بالثورة؟ وهو نفسه قد حضر اجتماعات كان الخطباء فيها يدعون إلى الثورة «التي تنتزع البرازيل من حافة الهاوية»...

- لقد أغرقتها الثورة فى الهاوية يا صديقى، لقد أغرقتها.

كيف يحدث الآن وبعد بضعة شهور أن يحتج الشعب على الظروف؟ هل يريد أن تقوم الحكومة بإصلاح البلاد فى شهرين؟

- ليس ذلك. إنك لا تعرف فضائل الشعب البرازيلى. إن شعبنا لا يمتدح إلا من كان فى المعارضة. ولم يحدث أبداً أن ساند حكومة مهما كانت جيدة.

- فضيلة أليس كذلك؟ شعب كرنفالى...

- أتعرف يا دكتور ريبييه من سيذهب اليوم إلى المنفى؟

- لا.

- إنه النائب الباهيانى السابق الذى عرفتك به. الدكتور أنطونيو راموس.

- آه. نعم! هذا الحمار...

- نعم إنه... ولكن لديه زوجة، الحيوان!

- ستذهب هي أيضاً إلى أوروبا بطبيعة الحال...

- لا، إنها سوف تبقى.

- ولكنني أعتقد أنها تعشق باريس، فلماذا لا تنتهز الفرصة؟

- لأنه في ريو ديه چانيرو، الحياة بدون زوج جنة... أفضل من باريس. وصل أتوبيس خوسيه أوجستو. اتفقا أن يتقابلا في المساء. وصعد الدبلوماسي إلى الأتوبيس وهو يحيى هذا أو ذاك بسخاء من اتخاذ النفاق مهنة له.

وفي الفندق وجد باولو ريچيه رسالتين بانتظاره. كانت إحداهما من أمه، رداً على برقيته التي يخبرها فيها برحلته، تطالبه فيها بأن يكتب لها رسائل. وكانت الرسالة الأخرى بتوقيع ريكاردو براس يطلب منه النصيحة، فالسياسي، ابن بلدته الذي أصبح الآن في السلطة مع انتصار الثورة، يعرض عليه وظيفة وكيل نيابة في إحدى مدن الداخل في «بياوي». الأمر طبيعي، ولكن الحياة هناك لاتساوى شيئاً. سوف يعيش مع زوجته (نعم، لأنه لن يقبل هذه الوظيفة إلا لكي يتزوج) كما أنه يستطيع أن يشتهر كمحام (فكونه وكيل نيابة لا يمنعه من الترافع في القضايا المدنية) وأن يجني المال. سوف يجد السعادة أخيراً مع روث. ما رأي ريچيه؟ إن خوسيه لوبيز وتيسيانو وحدهما لا يريدانه أن يتزوج. «فسوف يكون تعساً... سوف يكون تعساً». ثم يقول في حاشية في نهاية الرسالة: «عد يا باولو فالأمور هنا تسير من سيئ إلى أسوأ. لم يكن مفر من القطيعة بين تيسيانو وجوميز. وامتنع خوسيه لوبيز عن التدخل أنت وحلك الذي...»

وكتب بالوريچيه رداً على الرسالة:

..... وإذا كنت تعتقد أن ذلك سيجلب السعادة
إلى حياتك، فلا تتردد وتزوج. لا أنصحك بالزواج كوسيلة لحل مشكلة حياتك.
لم أحاول أنا ذلك. ومع ذلك أشعر بأنني لو كنت فعلت لكنك تعساً. تعس

بنفس قدر تعاستى الآن. فمع شخصيتى... وغيرتى... كانت الحياة ستصبح جحيماً. لى ولها. ولكن إذا كنت متأكداً من أنك ستجد فى الحب وفى الزواج هدف حياتك فلا تستمع إلى نصائح ولا تصنى لأحد. تزوج وعش حياتك. وإذا أصبحت تعساً؟ رصاصة تحل كل شىء. تحل كل مشاكل الحياة.

إن خوسيه لوبيز عندما تعرض عليه هذه الرسالة سوف يقول إننى اقترح عليك علاجاً لم أرده أنا. وسوف يتسم تيسيانو مؤكداً أننى بمثل غباء فارجاس^(١). لكننى لم أنتحر (بأى أسى أعترف لك ياريكاردو!) لأننى لم أكن أملك الشجاعة. ففى كل مرة كنت أضغط فوهة المسدس على أذنى كانت يدى ترتعش. لم تكن لدى الشجاعة، كنت جباناً. ولذلك لا أزال أحيى ولا أزال أعانى.

ولكنك إذا نسيت أنك، قبل كل شىء، فنان وشاعر وأنت تمارس المحاماة يمكنك أن تكون سعيداً.

حل مشكلتك بنفسك ياريكاردو، ولا تصغ إلا لرغبتك فى السعادة. سأتى فى خلال يومين لأهدى من غضب جوميز باللقاءات المثيرة التى أجريتها.

* * *

أعاد قراءة الرسالة. لاحظ أنه كتب «هى» بحرفين كبيرين. فشطبها وكتب مكانها «هى» بحرفين صغيرين. «إنها لا تستحق إلا حرفين صغيرين». كان وهو ينظر من النافذة إلى البحر المتماوج يفكر فى حالة ريكاردو براس.

- المسكين! قد يتحول إلى تعس. قد يتحول إلى سعيد. فليحاول إنها مسألة

(١) جيتوليو فارجاس (١٨٨٣ - ١٩٥٤) أحد رؤساء البرازيل انتخب فى ١٩٣٤ مارس حكماً استبدادياً ولكنه حقق بعض الإصلاحات الاجتماعية. انتحر فى ١٩٥٤. (المترجم)

هامة أن يحاول المرء أن يكون سعيداً. أنا لم أفعل حتى ذلك. لقد كنت مغفلاً...
ومع العشاء جاءت صحف المساء.

أخذ باولو ريجه يفلسف:

- إن المعدة وحدها التي لا علاقة لها بمآسينا. إنها مستمرة في طلب الطعام
بنفس الطريقة.

كان يفكر بأن الوعي والمعدة يعملان بنفس الكيفية، وبرهن لنفسه على:

- أن الرجل الغنى اللص يرقد ومعدته مرتاحة، ويستغرق في النوم كأنه أظهر
عباد الله. ولكن المسكين الذي يرقد ومعدته خاوية هو البائس الذي لا يستطيع
النوم لأنه نادم على أنه لم يسرق...

وانقض على طعام العشاء.

قرأ الصحف. كان الشعب ساخطاً لأن الحكومة لا تريد أن تمنح الإعانات المالية
المقررة للأندية الكرنفالية.

وابتسم باولو:

- بلاد الكرنفال! بلاد الكرنفال! لو كنت رئيساً أو ديكتاتوراً كنت أقرر إقامة
كرنفال لمدة ٣٦٥ يوماً... كانوا يعبدوننى...

كانت الأضواء في المدينة تنافس النجوم. وكان مصباح كهربى كبير ينافس
القمر. وكانت الإعلانات المضاءة تقترح علاجاً للمرضى الأغنياء.

كانت السيارات تمر وبها أناس أغنياء ذاهبون إلى المسرح.

- الرحمة بحق الله!

كانت المرأة النحيقة - وكأنها جلد على عظم - المسلولة تتجول وهي ترضع
طفلاً يتراقص الجوع على وجنتيه.

أعطاهما باولو ريچيه ورقة نقدية فى لهفة كبيرة لأن يبدو طيباً.

كانت السيارات الفارحة تتوالى.

- فليسعدك الله.. ليجعلك فى سعادة...

- مستحيل يا أختاه! لقد ولد الشقاء معى، الموت وحده الذى يخلصنى...

- أى إنسان لم يجرب الجوع لا يعرف الشقاء ياسيدى الطيب.. -

كان إعلان عن أحد الأدوية يستخدم عبارة السيد المسيح: «لا يحيا الإنسان
بالخبز وحده. خذ «فورسول»! ردد باولو ريچيه:

- لا يحيا الإنسان بالخبز وحده... ولكن أين يعثر على السعادة ليأخذ منها؟



حدثت القطيعة التي لا مفر منها وتخاصم جوميز مع بيدرو تيسيانو. وتضامن الآخرون مع تيسيانو وإن كانوا يعلمون أن المدير التجارى لجريدة «لاستادو داباهيا» على حق.

عندما وصل باولو ريجيه من ريو حكى له خوسيه لوبيز الموضوع:

- تصور أننا كنا نتحدث عن الكرنفال. وأكد ريكاردو أنه من المستحيل اليوم كتابة قصة عن الكرنفال بها بعض الأصالة. فما يكتب هو دائماً نفس القصة. أب يعطى كامل الحرية لإبنته، وفي الكرنفال يقابل فتاة مستكرة بشكل جذاب فيصطحبها إلى غرفة وعندما يعريها يكتشف أنها ابنته. من الممكن طبعاً أن يتم استبدال الفتاة بالزوجة أو الأخت أو الجدة.... ولكنها دائماً نفس القصة...

- نعم.

كنت مؤيداً لرأى ريكاردو. وبذل تيسيانو جهده فى أن يكتب قصة أصيلة عن الكرنفال فتحدثناه، وفى اليوم التالى...

- ماذا حدث؟

- نشرت «لاستادو دا باهيا» القصة التى أحدثت القطيعة.

- أصيلة؟

- فى غاية الأصالة. وأكثر من ذلك أنها لا أخلاقية. أتعرف القصة التى تخيلها تيسيانو؟ أرمل لديه ثلاثة أبناء. الأول، أكبرهم طالب بإحدى الأكاديميات يتردد على ملاعب كرة القدم. والثانى لم يكن ولدأ بل بنتأ. والأصغر صمى فى الرابعة عشرة، أدخله أبوه مدرسة داخلية. الفتاة التى تربت على الطريقة الأمريكية كانت تسمى استعمال الحرية الممنوحة لها. ويأتى الكرنفال ويصف تيسيانو ببراءة «مهرجان الغرائز». يرتدى العجوز قناعاً ويذهب للهو. كانت كل الأسرة خارج البيت. وكان من المفترض أن الابن الأصغر نائم فى المدرسة الداخلية. وفى إحدى الحفلات يقابل الأرملة قوأمأ جميلاً متنكراً... فيرقصان ويشربان ويثرثران. وعند منتصف الليل يسحثن عن مكان آمن. وينزع العجوز القناع فجأة عن صاحبه فيكتشف مرعوباً...

- ... ابنته؟ مثل الآخرين!

- لا ياعزيزى. ابنه! ذلك الذى كان بالمدرسة الداخلية. لقد هرب من المدرسة، واستأجر ملابس تنكرية وذهب ليرقص...

- أوه، أوه!

- خرج جوميز عن وعيه عندما قرأ القصة التى نشرت. «قصة شذوذ جنسى تحط من شأن الجريمة». ودارت بينهما مناقشات أنهاها تيسيانو بعنف وقرر أن ينسحب. وحاولنا أن نصلح ذات البين ولكن جوميز أساء فهمنا فانسحبنا نحن أيضاً تضامناً مع تيسيانو.

- ياله من كلب جوميز هذا! إنه فى نهاية الأمر مدين لك بكل ماوصل إليه

ياخوسيه، فعندما لم يكن لديه سوى «باهيا نوبا» كنت تمدد بأسباب الحياة.
والآن...

- وتيسيانو الذى جعل من «لاستادو دا باهيا» اسماً!

- كلب!

- نذل!

وأردف جيرونيمو:

- لقد كنت دوماً أقول إنه لا يساوى شيئاً.

- والمقابلات التى أجريتها فى ريو، ماذا أفعل بها؟ أنشرها فى جريدة أخرى؟

وأشار عليه خوسيه لوبيز بأن يبعث بالمقابلات إلى جوميز.

- هكذا إذن! أذهب أنا إلى ريو على نفقتى، وأقوم بعد ذلك بإجراء

المقابلات. فبأى مناسبة تكون لجوميز؟

- لقد ذهبت إلى هناك لكى تجريها له. أرسلها له.

- حسناً، سوف أرسلها. ستظل دوماً ياخوسيه لوبيز نفس الإنسان الطيب.

وأضاف جيرونيمو:

- الآن يدير «لاستادو دا باهيا» صحفى أخلاقى جاء من الأقاليم.

- والمحرون؟

- أناس من هنا. إن الجريدة يتم تحريرها بشكل سيء للغاية...

- سوف تحقق الجريدة نجاحاً. فبالنسبة لباهيا، جريدة فقط مثل هذه...

- لقد رأيت جوميز ذلك اليوم، يزداد سمته باستمرار، لقد أثرى النذل...

- ذكى...

- ولكنه أمدى حتى الآن.

- سوف ينتهى حاكماً للولاية.

- إذا انتهى.

وفى الشارع، كانت زنجية تهز أراذلها وتصيح:

- فول سودانى محمص! آكاراجيه وأباراس^(١)!

وعلى مبعدة منها كان صبي يصرخ:

- «لاستادو دا باهيا»... اقرأ «لاستادو دا باهيا». مقالة عن غلاء المعيشة...

* * *

كانت صورة مارياديه لورديس تتلاشى شيئاً فشيئاً من ذهن باولو ريجيه.

وكان يشعر أنه حتى لو استطاع أن ينساها فإن حياته لن تستقيم أبداً. لن يكون لوجوده هدف، لماذا يحيا فى نهاية الأمر؟ كان يشعر أن حياته راكدة مثل مياه بحيرة ليس لها - كما للأنهار - غاية: أن تنساب حتى تبلغ المحيط. ولكن على عكس مياه البحيرة. وإن كانت راكدة، فإن حياته لم تكن صافية. وسيطر عليه عدم رضا هائل. كان يشعر بالحاجة إلى السعادة أو الصفاء على الأقل. أن يحيا بلا رغبات ولا أحلام مثل بيدرو تيسانو. إن لم يجد معنى أو هدفاً للوجود فعلى الأقل يجد الصفاء. أو يصبح لا مبالياً بلا رغبات. حتى ذلك كان مستحيلاً. لم

(١) آباراس: طبخة شعبية تصنع من عجينة الفاصوليا وتقلي فى زيت النخيل. (المترجم).

يفارقه عذاب البحث عن السعادة. لم يتوصل، مثل تيسيانو، إلى تقديس الشك. عاش أوقاتاً عصيبة. كان فى البيت الريفى الهادىء، منعزلاً فى غرفته، يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، تسيطر عليه رغبة جبارة فى أن يقطع صلته بكل شىء، وكان ينتهى فى كل مرة تقريباً بأن يستقل سيارته ويذهب إلى بيدرو تيسيانو ليتحدثا. لم يعد تيسيانو يخرج. يكاد يكون أعمى. وكان يستطيع بالكاد أن يتحرك داخل البيت. كانت ابنته الصغرى تقوم برعايته. وهى فتاة فى الثالثة عشرة، كانت تجد ملاذها فى التقرب من ربيحه. وكان الرجلان يتحدثان كثيراً. وكان بيدرو تيسيانو الساخر يضحك من عدم رضا باولو ربيحه ويقول له:

- لماذا لا تلجأ إلى الدين يا ولدى؟

- ومن يدري! ربما أفعل ذلك...

- هيا، ياربيحه كفى. حاول أن تعيش من أجل الشك. أن تعيش من أجل المعاناة. من أجل عدم الرضا الخالص. وبدلاً من أن تصارع الشك، حاول أن تعشقه. أنا شخصياً أشك فى كل شىء.

- حتى فى الشك؟

- على الأخص الشك...

- أعرف ياتيسيانو أنك وجدت حلاً. لماذا تحتفظ به بأنانية؟ لماذا لا تخبرنا به؟

- لقد قلته أكثر من مرة! إن الحل هو ألا تريد أن تجد حلاً...

- هذه نكتة...

- كما تحب...

* * *

كانوا يتقابلون قليلاً فى الآونة الأخيرة. كان باولو ريجيه منطوياً على نفسه، لا يقابل إلا تيسيانو. أما خوسيه لوبيز الذى كان يشرب كثيراً فقد غاص فى كتب الفلسفة، كان عاطلاً عن العمل وكان يغير الفندق باستمرار. وفى كل مرة كان يغادر الفندق إلى فندق أسوأ منه. أصبح نحيلاً، غير راض، كارهاً للحياة. كان يقرأ أكثر فأكثر عليه يجد السعادة فى كتابات «كانط» والقديس «توماس».

- الفلسفة وحدها...

ولكن ريكاردو براس لم يوافق:

- بل الحب والزواج...

تزوج ريكاردو براس. وكان باولو ريجيه وخوسيه لوبيز شاهدين على الزواج. وعرض عليه باولو أن يقضى شهر العسل فى المزرعة. بعد ذلك كان عليه أن يذهب إلى مدينة صغيرة بعيدة داخل «بياوى».

تمت تيسيانو:

- المسكين!

تحرر جيرونيمو سواريس من تأثير بيدرو تيسيانو. وبدأ يعيش سعيداً. كان يقضى ليلته مع الفتاة التى قابلها مع بيدرو تيسيانو فى ذلك اليوم المشهود. قرر أن يعيش معها فى أكمل سعادة... كان نادراً ما يظهر. ولكنه فى الأيام التى يزور فيها تيسيانو كان يتخلى عن أحلامه كلها لسماعه سخريات صديقه. كان يتخيل نفسه مثل بيدرو، لا مبالياً، متعالياً، شريراً، محطماً للأوهام.

ولكنه فى الليل، بالقرب منها، وبين ذراعيها، كان ينسى تيسيانو. وتعود إليه صورة بيت صغير مع كثير من الحب وكثير من الحنو. وكانت ابتسامتها هى أقصى

درجات السعادة. فكان يصارع تأثير بيدرو تيسيانو. كان يشك في قدرته على التغلب عليه. وإذا لم يستطع سيقى بائساً طوال حياته... ولن يحقق أبداً أحلامه، ولن تكون له الشجاعة أبداً في أن يكون سعيداً...

وكان بيدرو تيسيانو يرى كل ذلك مثاراً للسخرية...

* * *

كان باولو ريجيه يتجول عندما صادف دونا هيلينا التي كانت تتبخر في ثوب جديد فحيتة:

- أوه، دكتور باولو! كيف حالك؟

- لا بأس... وأنت يادونا هيلينا؟

- بخير...

سألته في فضول:

- وماريا ديه لورديس، يادكتور باولو ألم ترها؟

- لا يادونا هيلينا. لا أعرف أخبارها...

كانت دونا هيلينا تعرف، لقد بكت ماريا ديه لورديس كثيراً بعد القطيعة. رحلت من المسكن. بعد ذلك قيل لها إن الإشبينة حصلت على وظيفة مدرسة في منطقة الداخل. ورحلت...

حياها ريجيه بفتور شديد:

- وداعاً دونا هيلينا، وداعاً!

- أوه دكتور باولو! بحق الله... إنك مستعجل جداً! لتتحدث قليلاً...

إننى أسكن الآن فى منزلى الخاص. ألا تريد أن تزورنى هناك؟

وذهب باولو ريجيه. شعر برغبة مفاجئة فى أن يمتلك هذه المرأة. كان يجمعها شىء مشترك مع ماريا ديه لورديس. ربما كانت تمتلكه الرغبة فى امتلاك خطيبته السابقة وهو يضم جارتها بين ذراعيه. كان يشعر بالفعل بهذه الرغبة الغريبة.

كان يخيل له أنه يحتضن ماريا ديه لورديس وهو يحتضن هيلينا.

أصبح من الصعب أن يقابل أى من أصدقائه. ريكاردو الذى تزوج كان فى المزرعة التى أعارها له، يقضى شهر العسل. وأحس باولو ريجيه أن ريكاردو سوف يتعد عنهم تماماً. كان يخوض تجربة السعادة. وفى «بياوى»، المدينة الصغيرة بالإقليم يعيش تجربته وهناءه البرجوازى. إنه لا يريد طبعاً أن يتذكر أصدقاءه الذين ينكرون سعادة الزواج.

وفى عصر أحد الأيام المشمسة، غمره فرح هائل عندما قابل خوسيه لوبيز يقرأ كتاباً لفرويد وهو يحتسى كأساً من «الفيرموت».

- خوسيه!

- مرحباً يا باولو! إجلس .

- دائماً تقرأ ياخوسيه؟

- فعلاً...

- قررت أن تجد السعادة فى الفلسفة؟

- وماهى السعادة إذن ياريجيه؟ أهى فرح كل يوم أم ألم كل ساعة؟ إنك تعرف جيداً أن هذه السعادة لا ترضينا.

- ربما تكون صفاء بيدرو تيسيانو ولا مبالاته.
- لا أعتقد ذلك، فييدرو ليس سعيداً. إننى متأكد من أنه يعاني من مأساة كبيرة. ولكن لاعتزازه بنفسه لا ييوح حتى لأصدقائه.
- يدهشنى ذلك. فييدرو يرتفع فوق كل شىء. فوق حياته الخاصة. إنه متعال. لا يشعر بالبهجة أو الأحزان اليومية.
- إن الإنسان الذى لا يشعر بالبهجة أو الأحزان اليومية إنسان مطمئن. ولكن هذا الإنسان المثالى لا وجود له. إن تيسيانو يشعر بها... وخاصة الأحزان...
- والسعادة ماهى؟
- ربما إيجاد حل فى الحياة...
- كيف؟
- نظام فلسفى، دين...
- ممكن. لم يبق لى إلا أن أحاول فى الدين.
- وفى ذلك أيضاً سوف تفشل...
- لماذا؟
- لأن الدين لا يكون مُرضياً إلا عندما تصل إليه بالفلسفة ...
- وإذا لم تفعل؟...
- ... قد نشعر بجمال الدين، بشاعريته، ولكننا نمل منه كما نمل من امرأة...
- إننا لا نعرف الأسس والأسباب...

- ومع ذلك فإن الشعب، الناس الجهلاء الذين لا يعرفون حتى ماهى الفلسفة يشعرون بالراحة فى الدين.

- الجهلاء نعم، ولكنك إنسان سام.

- أى شقاء أن يمتلك المرء قدرأ من الذكاء ! إنى على استعداد لأن أتنازل عن كل ثروتى مقابل جهل أحد هؤلاء البائسين.

- أمنية قديمة لكل إنسان ذكى، يا صديقى.

وطلب كأساً أخرى من «الفيرموت»، وتابع خوسيه لوبيز:

- لقد أنهيت رواية عن هذا الموضوع ياباولو...

- حقاً؟ ومتى ستنشر؟

- لا أستطيع أن أنشرها، بأى نقود؟

- أنا أموال النشر... سوف ننشغل بذلك على الفور.

دفع باولو ريجيه حساب المشروبات. كان خوسيه لوبيز فى ملابسه الرثة صورة لحياتهم أجمعين.

- خوسيه، لماذا لا تأتى لتعيش معى فى البيت؟ سأعد لك غرفة...

- لا ياريجيه، لا تكلف نفسك هذا العناء...

- سأعطى أمراً، وتأتى غداً لتستقر.

- لا ياسيدى. لا أعرف كيف أعيش عند الآخرين. هذه مسألة محسومة. لن أذهب.

- أنت...-

* * *

فى مسكنه بالفندق الحقبى؁ كان خوسيه لوبىز ىرتب مسودة الرواية التى لم يكن قد وضع لها عنواناً بعد. كان ىجهده ذهنه فى أن ىجد لها عنواناً. كتب: «مرضى عدم الرضا». قرأه. لم ىعجبه. شطبه وكتب: «شعاذون السعادة».

وفى الصفحة الأخيرة؁ بدلاً من كلمة «النهاية» التقليدية كتب: «انتهى». ابتسم خوسيه لوبىز. وشطب بالقلم كلمة «انتهى» واستبدلها بكلمة «ابتداء» كان ىتساءل عما إذا كان أحد سىفهم أنه بمجرد انتهاء الكتاب ونهاية البحث الوهمى عن معنى الحياة؁ تبدأ مأساة كل يوم...-

كان خوسيه لوبىز ىفكر:

- ومع ذلك لن تكون الرواية مفهومة. من سىقرأها لن ىفهم شيئاً. إنها قصة بضع أرواح. إننى لا أصف حتى الحالة الفىزىقىة لشخصىاتى.... إنهم مجرد مشاعر...-

وأعاد هذه الأفكار على باولو رىجيه عندما ذهب إلى المطبعة.

- إن رواىتى ىنقصها المعنى الإنسانى. إنها ذاتية تماماً.. إنها حىاتنا.. لن ىهتم بها أحد...-

- وذلك ىعنى أنها رواية جىدة.

عندما غادرا المطبعة كان الوقت مساء. كانت الظهيرة قد ماتت بلا ضجة. مكررة ما فعلته بالأمس؁ وما ستفعله فى الغد.

وفى الكنيسة؁ كان الناس ىصلون؁ وكان الدعاء ىتصاعد كأنه تضرع واسترحام.

- أنا لست بعد «شحاذاً للسعادة» ياخوسيه... وإلا كنت هناك مع المصلين...

- إن الدين مثار سخرية. ومع ذلك أشعر بحاجة كبيرة للإيمان...

- ولماذا لا تؤمن؟

- لا أؤمن. ربما أصل إلى الدين. وإذا وصلت سيكون أمراً حسناً جداً...

- ستصبح «تومانيا»...

- نعم، سأجد أساس الدين.

- إنى أعتقد، مثل ريكاردو، أن الأشياء الطبيعية وحدها هي التى تحقق الرضا. الغريزة وحدها يمكنها أن تقودنا إلى الدين. إن الدين لا يمكن تفسيره بل يجب أن يُحس. إن الغريزة (هذه الغريزة لا علاقة لها بالمادية، كما ترى...) هي التى يمكن أن تقود إلى الدين...

- إلى أى دين؟ إلى دين فرويد؟

- كلا. إلى دين المسيح لكن بلا خداع...

- ها أنت ثانية تسخر... لقد مضى ذلك الزمن...

- لا، بل إنى جاد...

* * *

لم تلاق رواية خوسيه لوبيز أى نجاح. قرأها عدد قليل. ولم يتحدث عنها النقاد. وظلت النسخ بالمكتبات. لم يفهم أحد صرخة اليأس التى كانت فى هذا الكتاب. رأى الكاثوليك أن الكتاب يهاجم الدين. وقال الماديون إن أبطال الرواية يسيرون نحو الكاثوليكية، بينما أشاع أعداء خوسيه لوبيز أن الكتاب شيوعى.

ظلت البرازيل كما هى. لا أحسن ولا أسوأ. برازيل سعيدة لا تتشغل بمشاكل،
لا تفكر وتحلم فقط بأن تكون، فى المستقبل القريب «البلد الأول فى العالم»...

* * *

عاد ريكاردو براس من المزرعة مع زوجته روث التى أصبحت أكثر إثارة
وأثوثة وهى تستند إلى كتف زوجها باسترخاء.

نظر باولو ريجيه إلى ريكاردو فى عينيه، محاولاً أن يكتشف ميكروب الشبع.
تمتم خوسيه لوبيز الذى فهم مقصده:

- لا يزال الوقت مبكراً.

قاما بزيارة تيسيانو الذى بدا متأثراً. كان يبدو له أنها آخر مرة يرى فيها
ريكاردو.

- سنذهب إلى «بياوى». وعندما تعود لن نجدنى... لن أكون هنا..

- لا تقل ذلك ياتيسيانو.

- إنها الحقيقة. أشعر أنى ضعيف. لكن لحسن الحظ لا أزال أراكم...

وتطرقت المحادثة لكتاب خوسيه لوبيز الذى استحسنته ريكاردو براس:

- رائع!

- لأننى أحمل فى داخلى مأساة كل منكم. فشل ريجيه فى الغريزة والعاطفة.
ومأساة تيسيانو فى الشك. والفشل الذى سوف تقابله حتماً ياريكاردو فى الحياة
البرجوازية التى ستحيها...

- سوف نرى...

وسأله تيسيانو:

- أعتقد أنى فشلت؟

- إن وضعك لنفسك فوق الحياة هو فشل. إنك لم تنتصر فى الحياة

لقد ظللت متفرجاً... لقد فشلت...

- ربما... ربما...

- هذه هى مأساتى. لأننى أعرف أن شيئاً لن يرضينى وأخاف أن أصبح مثلك

أنت ياتيسيانو. ومن المستحيل أن أبقى لا مبالياً بالحياة. لابد أن أعانى دوماً...

جاءت ابنة تيسيانو الصغيرة بالقهوة، وأخذوا يتجرعون السائل الأسود ببطء

فى رشفات صغيرة.



بعد قليل غادرهم خوسيه لوبيز. اصطحبه جيرونيمو سواريس وبقي باولو ريجيه الذى أراد أن يمضى بعض الوقت مع ريكاردو براس الذى سوف يرحل فى مغامرة السعادة الى مدينة صغيرة كتيبة.

استفسر باولو قلقاً حزيناً من رحيل صديقه عنهم:

- لماذا فضلت أن تسلك من داخل ولاية باهيا؟ ألم يكن من الأفضل أن تسافر بالباخرة؟

- لا، فالرحلة بالقطار أكثر فائدة. سوف أذهب حتى «جوازيرو» ومن هناك أذهب إلى «بياوى» وأمكث هنالك...

- سوف تترك فراغاً...

أخذ باولو ريجيه يتأمل القطار الساكن. كان الرذاذ يتساقط، وكانت روث تتدثر بمعطف يكاد يبتلعها.

قالت بتغنج:

- إن لى حقوقاً على ريكاردو أكثر مما لكم عليه. إننى زوجته... أما أنتم فمجرد أصدقائه.

كان القطار الساكن يعطى إحساساً بالقلق لا يمكن تفسيره.

تابعت روث وهى تطوق عنق زوجها بذراعيها:

- ومع ذلك، سوف أقوم... أقوم بشفائه من الأدب...

- هل قلت أدبا يادونا روث. أن حياتنا أدب فحسب.

وتابع كمن يحدث نفسه:

- ومن ذا الذى يستطيع أن يبرأ منه؟

صفر القطار. وكان فى هذا الصفير الحاد الممتد شىء من الحنين يثير القلق.

- وداعاً يادكتور ريجيه.

- وداعاً يادونا روث.

- باولو...

- ريكاردو...

تعانقا طويلا وظل القطار الكبير ساكناً لا مبالٍ.

- قل وداعاً لخوسيه وتيسيانو.

وتابع بصوت خفيض:

- سأكون سعيداً ياريجيه.

- أتمنى لك السعادة...

ثم بدأ القطار يتحرك وريكاردو فى النافذة يلوح بإشارة الوداع، وظل باولو ريجيه ساكناً ينظر إليه. ونقص الأصدقاء واحداً...

ظل وحيداً على رصيف المحطة.

- مسكين ريكاردو ! كم سيصبح تعساً عندما يحل الشبع.

وإذا كان على صواب في نهاية الأمر؟ إذا كانت السعادة تكمن في الزواج؟

إذا صح ذلك يكون ريجيه قد ترك السعادة تفلت منه. لقد كانت في متناوله... ولم يكن عليه إلا التغلب على الأعراف. ولكنه فشل حتى في ذلك. هو الذي كان في باريس يطلق السخريات ويهزأ بالمجتمع لم تواته الشجاعة ليتملص منه. ربما ترك السعادة تفلت... أن تكون له زوجة، وكثيراً من الحنان، وطفلاً صغيراً يلعب معه. أن يرى الدجاج ويكون غيوراً. السعادة...

من يدري...

انجه باولو ريجيه نحو السيارة وهو يتسم.

والبهجة؟ من يعرف؟ ربما تكمن في الحزن...

وفي السيارة أخذ يتابع أفكاره وهو شبه مستلق.

بعد ذلك أراد أن يتتحرر. لقد قرب المسدس من أذنه في عصر أحد الأيام الغائمة. عصر خلق من أجل الانتحار. ولكنه فقد شجاعته. كان يخاف من الموت بشكل لا يصدق... لماذا؟ لم يكن قد فهم بعد... لم تكن الغيبيات تخيفه. لم يكن يعتقد إلا في حياة الجسد... لماذا لم يتتحرر؟...

كانت السيارة تتابع طريقها فوق الطريق المبلول. وكان بعض الصبية يلعبون كرة القدم، على الرغم من المطر. كانت به رغبة أن يطلب من السائق أن يدوس هؤلاء الصبية. أن يقتلهم جميعاً. كان يفكر في ذلك وهو يشعر بالرافة الانسانية. «إن ذلك سوف يجنبهم المعاناة. ولكن ما من أحد يريد أن يفارق الحياة...» فكل

الناس يتشبثون بها بشراسة. حتى أولئك المسحوقون مثله. لم يكن لهم أى أمل
(أملنا اليومى!) فى بلوغ فتات السعادة هذه...

كان متعلقاً بالحياة. لم يرد أن يفارقها. اهتز المسلس فى يده فى عصر ذلك
اليوم الضبابى، عصر يوم المتحجرين...

وفكر فى القطار الكبير الذى ذهب فيه صديقه ريكاردو، بعيداً...

- إننا فرسان السعادة. لقد حاولنا جميعاً خوض المغامرة. وفشلت أنا.

وكان خوسيه لوبيز خاسراً دوماً. أما ريكاردو فبدلاً من أن يواصل مشاطرتنا
مأساتنا، رأى أن يحاول العثور على معنى للحياة...

القلق... الحاجة الى هدف. لماذا؟ لماذا هذا الشك؟ ولماذا عدم الرضا ذاك؟

- الأدب...

كان صوت روث يرن فى أذنيه عذباً.

- سأكون سعيداً (الأمل فى صوت ريكاردو)

- أتمنى لك السعادة... (الوهم فى صوته).

- المسكين! وعندما يشبع؟ وعندما يشعر أن بهجة كل يوم وأحزان كل يوم لم

تعد تكفيه؟ ستكون مأساة رهيبية. ماذا ستكون نهاية ريكاردو؟ إنه طيب جداً،
مخلص جداً... نهاية حزينة...

كان صبي قذر، رث الملابس ينادى على الجرائد. وكانت الشمس تخترق
السحب التى تملأ السماء وتتفضل بالظهور. فى ذلك الصباح، كانت السماء
البرازيلية تحاول أن تقلد سماء لندن. ولكنها كانت كممثل فاشل فبدت رمادية.

نادى باولو ريجيه الصبي بائع الجرائد، واشترى منه جريدة. وبدأ يقرأ ليبعد الأفكار التي جعلته مكتئباً.

لقد اشترى بالمصادفة جريدة «لاستادو دا باهيا» كانت المقالة الأساسية تحلل الوضع السياسى. كانت تتحدث عن الوطن الحبيب، وعن إعادة إصلاح البلاد وإنمائها، وعن العزة. قرأ باولو ريجيه المقالة كلها ووجد فى نهايتها توقيعاً باسم ا. جوميز.

جوميز يكتب الآن.. من كان يتصور ذلك؟... ولكن الدنيا تدور... جوميز... إنه أيضاً لن يصل إلى السعادة أبداً. لقد صور له ذكاؤه أن المال سيعوضه عن عدم الرضا. لم يدرك أن المال شديد الوطأة أحياناً.. إنه هو باولو ريجيه الغنى جداً الذى يقول ذلك... فالمال لا فائدة له إلا فى إشباع الغرائز... والغريزة (التي لا يستطيع ريجيه أن ينكرها) ليست كل شىء فى الحياة. كانت السيارة تجول فى المدينة. أمر باولو السائق بأن يتوقف أمام إحدى الحانات. لم يجد خوسيه لوبيز. فتابع طريقه. وخوسيه لوبيز؟ عندما تعرف به، أعتقد أنه قابل نموذجاً للإنسان المطمئن. وبعد ذلك، يا للفرق! إنسان ينوء بالمشاكل، تنس إلى أقصى درجة... يخفى تحت مظهره البرجوازى إنساناً ممزقاً، واحداً من أبطال تلك المأسى العبيثة. والآن وقد أصبح لا يعتقد فى شىء، أخذ يقضى وقته فى الشرب... إن أصدقاءه هؤلاء نماذج بائسة. إن أصدقاءه الوحيدين أصدقاءه البرازيليون. أما أصدقاءه الفرنسيون فقد نساهم بالفعل...

عامان فى البرازيل... والنتيجة، ماذا أفاد من عودته إلى الوطن؟ انهارت كل مشروعاته. لم ينخرط فى السياسة، ولم يمارس المحاماة. والشهور التي أمضاها فى الصحافة لم تحقق له اسماً. تخلص فقط عن شكه الذى جاء به من فرنسا، وأصبح قلقاً... وفوق ذلك، لم يجد نفسه وسط شعبه الذى كان يزداد سخطاً كل يوم. تلفت حوله فرأى فى المرأة لافتة تحمل إعلاناً بحروف حمراء كبيرة:

- آوجستو، هيا لنرى ذلك الشيء
واقترب السائق بالسيارة، وقرأ ريجيه:

اليوم - اجتماع كبير - اليوم
فى قاعة الاحتفالات
يتحدث النقيب كارلوس فرياس عن الحكومة الحالية ويتقدها. خطب لبعض
الشخصيات تطالب بعودة البلاد إلى النظام الدستورى.

دهش باولو ريجيه:

- ياله من شعب! بالأمس قام بثورة، وبعد بضعة شهور يريد أن يحارب هذه
الثورة! ياله من كرنفال! وهذا النقيب! عندما عدت، كان يشيد بالسياسيين
الليبراليين باسم قحاب باهيا. واليوم، يهاجم الثوار. إنه جتون إلقاء الخطب...
بلاد الكرنفال...

وتابعت السيارة طريقها على الأسفلت المبلول.

* * *

كان جيرونيمو سواريس قايعاً فى وسط السرير. أرادت «كونشيساو» بود أن
تعرف ما به.

- لا شيء، يا صغيرتى، لا شيء.

اقتربت منه وقبلته فى جبينه.

- أغاضب منى، يا حبيبى الجميل؟

- لا.. لكن اتركينى فى حالى.

ظلت تنتظر إليه، والسؤال معلق فى عينيها وعلى شفيتها.

وظل جيرونيمو فى وسط السرير صامتاً. يحدث ذلك فى كل مرة يذهب فيها إلى تيسيانو. وكان يدرو الذى يشعر أن جيرونيمو يبتعد عنه بمرور الوقت، يسخر من كل المثل فى هذا العالم والعالم الآخر.

- لأن الحب، فى الحقيقة، بلاهة، أليس كذلك يا جيرونيمو؟ أن نهوى من لا يستطيع أن يمنحنا شيئاً سوى الجنس... والجنس يباع فى الشارع بأبخس الأثمان. إن الحب بلاهة شعراء رومانسيين محرومين. بلاهة ليس فيها من الأصالة شيء. لا ينبغي أن نتعلق إلا بما يتسم بالأصالة، أن نحب امرأة هندية والتى قبل أن تمنحك نفسها تتمدد فوق سكاكين حادة، أو نحيا مع غجرية تلف بنا العالم دون وطن ودون إله... إننى أعشق الفجر لأننى غجرى فى الثقافة. لكن أن نحب امرأة عادية، تشبه كل النساء الموجودات منذ الأزل، جميلة لا أكثر، تقوم بحساب الحب ولا تمارسه إلا بشهادة مقدمة من الكنيسة، امرأة بلا عيوب أو نقائص، فهذه ثقافة. الرجال العاديون فقط هم من يحبون نساء مثل أولئك...

أيده جيرونيمو وقد احمر خجلاً:

- نعم...

- وأن تؤمن... لا يزال هناك رجال أذكىء يؤمنون. أن تؤمن... أن تؤمن بأن هناك إلهاً، مخلوق أسمى يقود خطانا ويحمينا... لا يزال هناك من يؤمنون...

- نعم هناك...

- اسمع يا جيرونيمو. يقولون إن الله خلق الإنسان. أما أنا فأعتقد أن الإنسان هو الذى خلق الله. على أى حال، سواء خلق الله الإنسان أم خلق الإنسان الله فالمسألة لا تليق بإنسان ذكى.

- والمسيح يا بيدرو تيسانو؟

- إنه شاعر. ساخر. متشكك. رجل مختلف عن عصره. لقد بشر المسيح بالمحبة لأنهم فى ذلك العهد كانوا يقدسون القسوة. كان متذوقاً للجمال. لقد أحب الجمال أكثر من أى شىء آخر. لقد قام بسخریات رائعة فى ميدان عام على الملأ. مثال ذلك المرأة الزانية. لقد غفر لها لأن المرأة كانت جميلة وأن امرأة مثلها لها الحق فى أن تفعل كل شىء. لقد استطاع المسيح أن يقهر الأعراف. كان رجلاً غير عادى. لكنه إله تافه جداً..

- كيف؟

- إله لم يأت أبداً بمعجزات كبيرة! اكتفى بأن يضاعف الخبز، وأن يشفى العميان. لم يزحزح أبداً الجبال، ولم ينزل أبداً من السماء ناراً على الأرض، ولم يوقف الشمس. لقد كان المسيح دائماً رغباً عنه مشعوذاً سيئاً.

- ومسيح المحبة؟

- إن المسيح كإنسان كان دائماً متسقاً. كان يبشر بالعفو لأن الانتقام كان القانون السائد فى ذلك الوقت. وكان يبشر بالعفة لأن الفسق كان منتشرأ فى ذلك العهد. لقد كان من الخارج، على الأقل، طاهراً على الرغم من عناد المجذلية وغيرها من النساء...

- ومن الداخل؟

- من يدرى! من المحتمل أن المسيح كان محافظاً على طهارته... على أى حال... إن الخطيئة بين أربعة جدران ليست خطيئة... هذا هو قانون العالم...

- والحب والإيمان بطريقة رومانسية بين أربعة جدران؟

- إن الغباء هو دائماً غباء أينما كان.

أطاعت وهي تحبس دموعها، أنزلت الصورة لتطلب منها الغفران. كان المصباح الكهربى المتلألاً ينشر الضوء فى أرجاء الغرفة.

- اطفئى هذا الضوء يا كونييساوا!

أطفأت الضوء.

- حتى بين أربعة جدران فالحب غياب... لامست ساق كونييساوا العارية ساقه. وأطبقت شفاتها المكتنزتان على شفتيه، وأخذ التفكير ينطفئ رويداً رويداً. ساق تلامس ساقاً. وشفتان تطبق على شفتين. أخذت غريزة الجسد تمحو العقل. كانت القبلة طويلة عذبة يمكن سماعها من خارج جدران الغرفة الأربعة...



استيقظت صورة «ماريا ديه لورديس» التي كانت راقدة في عقله. من جراء الخبر الذى أعلمته به هيلينا. فأخذ يتأمل تصاريف القدر. إن هذا المعلم الشاب الذى أمضى حياته يبشر بالأخلاق ويعلم احترام المجتمع كانت لديه الشجاعة لأن يحطم الأعراف. أما هو، باولو ريجيه، الساخر، المتناقض، الذى يسخر من كل شئ يمت للأعراف بصلة، فقد استسلم للمجتمع.

- ولكن امتأكدة أنت من أن لوردينيا سوف تتزوج؟

- بلى... سوف تتزوج من مدرس فى المدينة التى تعمل فيها دونا بومبينيا بالتدريس. إن له اسماً معقداً. إن لم أخطئ فغريمك يدعى سيبيستيانو هيوليتو.

- غريمى... غريمى...

أمسك رأسه بيديه. وكانت هيلينا تنتظره فى أحسن ثوب لديها.

- لقد حان موعد السينما. يا باولو!

- اذهى أنت، سأنتظرك.

- هذا فقط إذا كانت جورجينا تريد الذهاب معى.

وافقت چورچينا التى ارتدت ثوبها على عجل، وخرجتا متأنقتين توزعان الابتسامات على الرجال المصطفين على الرصيف.

مرر باولو ريجيه أصابعه فى شعره بحركة تخصه وحده. كان لا يريد أن يفكر. أبعد رأسه عن يديه ونهض. مشى إلى النافذة. حاول أن يتسلى بحركة الشارع. كانت عربة القمامة تجمع القاذورات. إن حياته (لم يرد أن يفكر ولكن الفكرة عاندته) كانت قدرة جداً. أى عامل نظافة ذلك الذى سينظفها؟ أيهم؟

مرت سيارة ارتسم فيها شبح هزيل. هزيل مثلها. وربما أسمر مثلها. جميلة للغاية. ماريا ديه لورديس... عيناها الواسعتان غائمتان. أى حزن ذلك الذى بهاتين العينين الواسعتين... إن هاتين العينين لم تكذبانها قط. كانتا تعترفان له دوماً بأن ماريا ديه لورديس تعيش فى ألم كبير... لو كانت هنا، فى هذه اللحظة، لزال كل آلامه وأحزانه. ولكانت قد داعبته، ووضعت يديها الرقيقتين فى شعره المنكوش فيطمئن قلبه. طيبة للغاية «ماريا ديه لورديس»...

وهو باولو ريجيه الذى يعتقد أنه متحرر ومتحضر إلى أبعد مدى ترك السعادة تفلت لأنه لم تكن لديه الشجاعة على الوقوف فى وجه الأعراف. لقد كان ميراث الأعراف راسخاً فى دمه...

السعادة فى أن يتزوج، ويكون له أطفال صغار، ويعيش بطريقة برجوازية... ولكن هل كانت تحبه حقاً؟ وكيف ستتزوج من آخر؟ من الطبيعى أنها الآن تحتقر باولو ريجيه. لقد أظهر أنه جبان. تافه وضعيف. أما الآخر، المدرس، فقد ظهر كبطل. «سييستيانو هيوليتو»... اسم شاعر.. لابد أنه شاب نحيف، ذو شعر طويل، يكتب أشعاراً غنائية، وفى أعماقه رب أسرة طيب.

- إن السعادة لا ينالها إلا التافهون والمغفلون.

ورنت فى أذنيه ضحكة بيدرو تيسيانو الشريرة الحادة.

- كل ذلك عبارة عن أدب... أدب... (حلاوة صوت روث)

ترك باولو ريچيه ذراعيه تسقطان بجانبه فى حركة تنم عن الإحباط.

- آه، الحياة.

أخذ يمشى بخطوات بطيئة فى الغرفة. أخذ قبعته واتجه نحو الباب.

- أذهب الآن يا دكتور باولو؟

- أنت هنا يا «بييه»؟

- أنا هنا لأن هيلينا لا تصحبني إلى أى مكان. ومع ذلك لقد أصبحت شابة. كانت تنفخ صدرها لتظهر ثدييها الصغيرين تحت القستان. ابتسم باولو ريچيه باشتهاء.

- تعالى هنا يا بييه.

أجلسها على ركبتيه، وأخذ يتحسس جسدنا بيديه. لاتزال طفلة ولكنها خليعة للغاية. واتجه تفكيره نحو مارياديه لورديس. فهي وإن كانت لم تعد عذراء لاتزال طاهرة. ترك بييه فجأة كمن يحاول أن يهرب من شىء، وخرج مسرعاً إلى الشوارع ذات الأرصفة السيئة.

- نادى قمار؟

- نعم وماذا هناك؟ نادى قمار.

أسقط فى يد باولو ريچيه. وكان خوسيه لويير يتسم من هيئته المرتابة.

- أصبحت مديراً لتنادى قمار لأن ذلك يعود بالربح الوفير. لا أفعل شيئاً سوى بيع «فيشات» القمار وشرب القهوة مع الزبائن.

- إنك مجنون ياخوسيه...

- لماذا يا باولو؟

- وثقافتك وطموحك، كل ذلك؟

- هل قلت إن لى طموحاً! إننى لا أطمح إلى شيء. وليست لى مبول أدبية. إننى اعتقد باستحالة الوصول إلى السعادة. وفوق كل ذلك، لا بد أن أدفع أجرة البنسيون...

- إنك...

- إسمع يا باولو. لقد نكصتُ عن كل شيء. لقد اقتنعت تماماً بما يقوله بيدروتيسيانو فالرجال المميزون. الرجال المختلفون لا غاية لهم. يحيون من أجل الحياة... وهذا ما أفعله.

- وعدم الرضا؟ والشك؟

- موقف فكري...

- إذن أنت تعتقد، مثل زوجة ريكاردو، أن كل ذلك أدب؟

- بالضبط،

- جميل!

- اسمع يا باولو، إن النهاية هي الموت كما يؤكد تيسيانو. وفي الموت وحده تكمن السعادة. لأن الموت وحده يخلصنا من آلام هذا العالم.

- ولم تتحر...-

- لا ندهش لذلك. فأنا عاطفى للغاية. لماذا أسبب لكم هذا الألم وأنتم
تحبوننى كثيراً، أنت. وتيسانو وريكاردو وچيرونيمو؟

- معك حق. أنا الذى لم أنتحر لأننى لا أملك الشجاعة.

- من أجل ذلك فقط؟

- خصوصاً من أجل ذلك... صحيح أننى فكرت فى أمى وفيكم... لكن إلى
كان كبيراً... لقد كنت جباناً...

- دعك يا باولو من هذه البلاءة...

- أتعرف أنها سوف تتزوج؟

- خطيبتك السابقة؟

- نعم. ماريا ديه لورديس.

- إن ذلك لا يدهشنى كثيراً. فهذه هى الحياة فى نهاية الأمر. لقد شعرت
بحاجتها إلى زوج ووجدته، ماذا هناك؟ ولم تكن أنت، بل كان شخصاً آخر.

- إننى بائس. لقد تركت السعادة تفلت منى...

- من يعرف ما إذا كنت ستصبح أكثر تعاسة؟ إن الحب يا باولو لا يجلب
السعادة... ولاشئ فى الحياة يفعل...

- ولاحتى الفلسفة، ياخوسيه؟

- حتى الفلسفة كفتت عن الاعتقاد بها. لقد كنت أعتقد أن الفلسفة تمنحنا
السكينة على الأقل، وأنها تحل مشاكلنا. كنت مخطئاً وزاد إجباطى إحباطاً.

- إن التجربة تكتمل بالإحباط...

- لقد خضت تجربة كبيرة...

ودعه خوسيه لوبيز. كان الوقت متأخراً، وكان عليه أن يذهب إلى عمله في نادى القمار. تابعه باولو ريجيه بعينه في حزن. كان نحيفاً، خداه غائران، كان يسعل كثيراً خلال المحادثة... أصبحوا لا يتلاقون إلا نادراً. وأصبح خوسيه لوبيز لا يظهر. كان يخفى بؤسه عن الجميع... كان ريجيه يتذكره: كان أكثرهم اعترافاً، وأكثرهم أملاً. كان يأمل في السعادة والصفاء. والآن، أصبح محطماً، يسكر في الحانات، ويدير نادياً للقمار، يتربص به داء السل. لقد كان رمزاً لقتلهم جميعاً... لأنهم فشلوا بشكل محزن...

فشلوا كلهم ما عدا چيرونيمو سواريس. فهو وإن لم يتوصل إلى السعادة الكاملة فإنه يمشى إليها بخطى عملاقة. كان قد تخلص رويداً رويداً من تأثير بيدرو تيسيانو، وقرر أن يعيش بصفة نهائية مع كونشيساو. استأجر منزلاً صغيراً وأثاثه بذوق. انتقلاً إلى المنزل الجديد ذات يوم سبت بعد الظهر. وقامت كونشيساو وهي فرحة، وبهجة طفولية تتراقص على وجهها، بترتيب المسكن. كانت تأمل دائماً فى أن تمتلك منزلاً. عندما كانت ما تزال فتاة فى بيت والديها، كان الزواج يبدو لها منتهى الآمال. بعد ذلك، ضاعت وأصبحت عاهرة ذليلة. ولكنها لم تنس أبداً حلمها. بيت صغير... ورجل تمنحه نفسها كلية. تعطيه الحب ويعطيها السعادة.

كم من مرة كانت زميلاتها فى العمل، العاهرات الوقحات المرضى بالزهرى يتهاكمن على آمالها!

- عندما نسقط فى هذه الحياة يا ابنتى، لا نخرج منها أبداً. وأقصى ما نحصل

عليه قواد يحمينا... لكن ذلك هو الأسوأ. ولا سبيل لأن تمنحى جسداك لرجل آخر، لأن القواد سيلازمك كظلك. وإذا ركبت رأسك ستلقين الضربات وتعودين إلى الشارع.

كانت تشك في أن تتخذ صديقاً.

- إن جسد الواحدة منا اعتاد أن يكون للجميع. لا يرضى بأن يكون لواحد... ولكن كونشيساو خلقت لتكون ربة أسرة. لقد خلقت لتمنح نفسها لواحد، واحد فحسب. ولذلك عندما دخل چيرونيمو العاطفى المتعطش للحب فى حياتها، أيقنت أن أحلامها قد تحققت. أحبه بعمق، وكان هو، بالمقابل، طيباً للغاية.

كانت زميلاتها يقلن:

- قديس!

ومع ذلك. كانت هناك أيام يتكدر فيها مزاجه. وكان يغلف لها القول، ويجعلها تتألم. كانت تبكى كثيراً عندما يصبح شديد الوطأة. ولكن مثل هذه الأيام أصبحت نادرة مؤخراً، وكانت سعيدة بأنها فى سبيل السيطرة عليه بحبها. لم تكن تعرف أن إضمحلال تأثير تيسيانو عليه هو الذى حقق هذه المعجزة. والحقيقة، أن چيرونيمو كان لا يرى تيسيانو إلا قليلاً. كان يخشى أن يقع من جديد فى القبضة الحديدية لسخریات هذا المدمر.

- إن الحب بلاهة...

ولكن چيرونيمو، المتعطش للحب. كان يفضل أن يكون أبله على أن يكون بائساً.

تقابلوا عند بيدرو تيسيانو. كانت حالة صديقهم قد ساءت فجأة. تجمعوا بجانب فراشه وكان باولو ريجه حزيناً للغاية، متأثراً أشد التأثر. وقد استولى عليه خوف مرعب من أن يموت تيسيانو. فتيسيانو كان يساعده بسخرياته وشكه على تحمل الحياة. وكان جيرونيمو فى هيئة المجذبة التائبة يتحدث ويتذكر تهكم بيدرو. وبالقرب من الفراش المتواضع حيث يريح المريض جلده وعظامه. كان خوسيه لوبيز ممسكاً بملعقة دواء كبيرة. كان بيدرو لا يزال فى حالة صحو يحاول أن يحدثهم.

- إنكم طيبون! لا أعرف كيف أرد لكم كل هذه الطيبة...

- لا تقل ذلك يا تيسيانو، أرجوك...

- إنه واجب علينا. إننا مدينون لك بالكثير...

وأخذ جيرونيمو يعدد المحاسن التى أغدقها عليهم بيدرو تيسيانو.

قال خوسيه لوبيز لبيدرو وهو يتأوله الدواء:

- هو، غير مدين لك بشيء يا تيسيانو. وإذا واصلت التأثير على هذا الولد ستجعل منه بائساً...

- ولكنك، على الأقل، سيكون مختلفاً عن جميع الرجال. وهذا ما أردت أن أفعله. رجل مختلف جدير بالانتماء إلينا.

- ليس بالنسبة له. إنه ولد طيب...

- طيب جداً. كريم النفس...

- لدرجة أننا نغفر له صغر عقله...

- المسكين!

سأل بيدرو تيسيانو عن ريكاردو براس. ألم يتلقوا منه خطاباً؟

أجاب باولو:

- كلا. ففى سعادته البرجوازية لا يكتب لنا.

وعقب خوسيه لوبيز:

- إطلاقاً... لا يكتب لنا لأنه تعس. إن ريكاردو متعجرف جداً. لم تكف عن تكرار أن السعادة ليست هى الحب الذى سوف يشبع منه. وقد حدث. ربما فى هذه الساعة يعاني بقسوة. ولكن الفطسة تمنعه من أن يصارح أصدقاءه... إن ريكاردو لن يعترف أبداً بأنه أخطأ.

أكد تيسيانو بصوت واه:

- بالضبط.

- مسكين ريكاردو...

- وأنت يا باولو، لقد أصبحت عاطفياً منذ مأساتك الغرامية...

- فعلاً. واليوم لم يبق لى غيركم يا أصدقائى. وإذا فقدتكم سأكون وحيداً فى الحياة ولا أعرف ماذا سيحدث. والحقيقة أننى بدأت فعلاً أفقدكم. خوسيه وجيرونيمو لم أعد أراهما، وتيسيانو مريض، وريكاردو فى «بياوى».

- لقد أردت أن أعفيكم من منظرى البائس...

- إية عزة نفس يا خوسيه!

- وجيرونيمو يدارى غبطته. فهكذا... يجب أن يشقى المرء أو ينعم وحيداً.

- لم أعرفك يا خوسيه.

- إننى اليوم مخلص يا باولو...

- تناقضات، الآن؟

- إكراماً لتيسيانو.

- آه !

دقت ساعة الحائط، وطلب تيسيانو الدواء:

- أنا الذى لم أطع أحداً قط، أرانى مضطراً فى آخر حياتى لأن أطيع ساعة...

* * *

- أريد أن أقدمك لحبيبتى.

- نعم يا چيرونيمو. لا بد أن تتحرر من تيسيانو. إن له تأثيراً عليك. وهو يعتقد أنه يفعل كل ذلك لمصلحتك. وبما أنه أخطأ... يجب أن تطمح إلى السعادة فوق كل شىء. إن تيسيانو الذى يعشق عدم الرضا والألم، كان يريد أن يصنع منك تيسيانو جديداً. كنت ستصبح بائساً إلى الأبد. إن تيسيانو شخص استثنائى، لقد جاء من زمن آخر، إنه لا يشعر بما نشعر به نحن أبناء اليوم من ضرورة البحث عن السعادة وغاية الوجود. إنه يحيا لأنه ولد. لا يريد أن يحقق ذاته، ولا يريد أن ينتصر.

- بل يمكن القول إنه لم يرد...

- هذا حقيقى. إنه يموت. تيسيانو العظيم... قليلون من هم مثله فى هذا القرن... ومع ذلك يموتون فى بؤس.

- لقد ولد فى البرازيل...

- فى بلد الكرنفال هذا، الأقنعة العادية وحدها التى تسود. لقد كان أسمى منا جميعاً. لقد استطاع أن يتغلب على عدم الرضا. لم يحاول أن يحل مشكلة وجوده. بل وضع نفسه فوق الحياة كمتفرج.

- ولكننا نحن...

- يجب علينا أن نحيا. ونحاول ألا نفشل. نسعى إلى السعادة. وحتى لا تعيش مأساتى ومأساة خوسيه لوبيز... عليك أن تكون سعيداً...

- سأكون سعيداً ياباولو.



أخذ السيارة وانطلق بسرعة. لقد هزته هذه المكالمة التليفونية. بيدرو تيسانو يحتضر. يحيا اللحظات الأخيرة من حياة مثيرة. اتصل ابنه بياولو ريجيه. كانت ساعة الحائط بصوتها الأجش تعلن الحادية عشرة مساء. هبط باولو ريجيه ليوفظ السائق. دفع باب الغرفة. وفي السرير الضيق كان السائق والحادمة مستغرقين في نوم برئ لأولئك الذين أشبعوا غرائزهم. أيقظهما. أخذا يعتذران في اضطراب. غطت الحادمة التي اعتراها الخجل وجهها بدلاً من أن تغطي الأعضاء الأخرى من جسدها.

- هيا يا أوجستو، لا أهمية لذلك. يمكنكما أن تناما سوياً وقتما تشاءان. الأمر سيان بالنسبة لى. لكن لابد أن أذهب فوراً. اخرج السيارة. كان المطر ينهمر بغزارة. أراد أن يعبر بجملة فخرجت الكلمات ساذجة:

- كأن السماء تبكى على رحيل تيسانو - إن باهيا وكتاب البرازيل الضعفاء سيفرحون وقد يقيمون حفلاً...

توقفت السيارة أمام باب جيرونيمو سواريس. طرق الباب. وفي الداخل لم يكن إلا الصمت. طرق الباب ثانية. لا أحد يجيب. وفي النهاية خرج عن شعوره وأخذ يضرب الباب بقبضته متعجلاً أن يصل إلى بيت صديقه الذى يحتضر. ظهر جيرونيمو فى النافذة.

- من هناك؟

- أنا، باولو ريجيه.

- تيسيانو يموت.. هيا بسرعة.

لم يستغرق جيرونيمو وقتاً في ارتداء البنطلون والجاكتة. وانطلقت السيارة من جديد باتجاه البنسيون حيث يسكن خوسيه لوبيز.

أخذاً يهزان الرتاج الضخم كثيراً. ظهرت صاحبة البنسيون. امرأة عجوز، قصيرة. سمينة - وهى تضع يديها فى وسطها:

- ماذا تريدان؟

- نريد أن نتحدث إلى السنيور خوسيه لوبيز.

- لم يعد بعد. ولا يجرؤ أن يظهر قبل الفجر. اللص مدين لى بإيجار شهرين. يأتى آخر الليل ويهرب فى الصباح. لا أعرف ماذا يفعل ... لص!

- كفى يا سنيورة. مدين لك بكم خوسيه لوبيز؟

- كم... إيجار الغرفة شهرين فى مائتى ألف راييس.

- سأسدها.

وسحب ريجيه النقود من حافظته. وبدا الرضا على المرأة:

- اعدرنى. إنك تفهم...

وأحصت النقود بأمانة:

- ولكن هناك زيادة مائتى ألف راييس.

- إنها لإيجار شهر مقدماً. لكن لا تقولى شيئاً خوسيه. والآن، أين يمكننى أن أجدّه؟

- لا أعرف ياستيور. إنه لا يقول أبداً أين يذهب...

ظلاً متحيرين. أين يجدان خوسيه لوبيز؟

- ربما يكون الآن عند تيسيانو...

- كلا. لقد أخبرنى ابن تيسيانو أنه لم يكن هناك، وأنه لا يعرف أين يجده. وفجأة:

- ولكنه يعمل فى نادى للقمار. أتعرف أين يا چيرونيمو؟

وكان چيرونيمو يعرف النادى. وانطلقت السيارة. صعدا سلالم طويلة، وفى الطابق الثالث سمعا صيحات السكارى.

- لابد أنه هنا.

سألا البواب الذى أجاب بأن خوسيه لوبيز لم يظهر منذ أيام، وأنه يأتى من حين لآخر إلى النادى ليشرّب فقط... وأخذ البواب يتفلسف فى لهجة الخلاسين البرازيليين:

- إنه شخص غريب الأطوار، هذا السيد خوسيه لوبيز. دائماً يقرأ ويشرب. إن حكايات كثيرة بدأت هكذا. لقد مرّ بي كثير منها...

لم يكن باولو وچيرونيمو ينصتان له. كانا قد ابتعدا هابطين السلم.

- دعك من خوسيه الآن. هيا بنا.

- هيا بنا.

انطلقت السيارة بالرجلين فى الشوارع المليئة بالحفر. كانا صامتين فى حزن
ثقيل.

كان بيدرو تيسيانو يحتضر وهو متمالك زمام نفسه بالرغم من بلوغه
السبعين.

كان جميلاً فى اللحظات الأخيرة من حياته وقد تركت الحمى آثارها على
جلده وعظامه. ومع ذلك. كان وجهه يشع بجمال غريب.

دخل باولو ريچيه منكس الرأس، ضاغطاً شفثيه حتى لا ييكنى. لقد أحب هذا
الدمر الرائع الذى عرف كيف يحيا حياة المعارضة.

أخذ چيرونيمو سواريس يعانق بيدرو...

.. كيف الحال إذن؟

أجاب المحتضر بصوت رفيع:

.. جيد. كما ترى.

فى الغرفة، كان المصباح الكهربى الصغير ييث من خلال «الأباجورة» ضوءاً
شاحباً. تلفت تيسيانو حوله:

.. وخوسيه؟

.. لم نستطع العثور عليه. ولكنه لن يتأخر. ومع ذلك لا يزال أماننا متسع من
الوقت لنثرثر... سنين...

.. دعك من ذلك يا چيرونيمو. أتريد أن تعزىنى؟ أعرف أنتى سوف أموت.

ولكنى لا أخاف الموت. لقد عشت كثيراً. عرفت الحياة والرجال - وأضاف مازحاً:

- والنساء أيضاً.

كان ابنه وابنته الصغيرة ييكيان. وكان باولو ريچيه صامتاً والتحيب يحتبس فى حلقه فبدا كمعيط.

كان بيدروتيسيانو يتسم للموت. كان رائعاً حتى آخر لحظة. كان يموت بنفس الروعة التى عاش بها.

عند رأس السرير. كان باولو ريچيه يتساءل فزعاً كما لو كان هو المحتضر وإذا كان هناك جنة ونار؟ سيدان بيدروتيسيانو. وربما يعانى. وأثارته هذه الفكرة. أنستدعى قساً؟

ومرر يده على شعره وجبهته الملتهبة، واقترب أكثر من تيسيانو، وهمس فى أذنه:

- وإذا كانت هناك حياة أخرى يا بيدرو؟

- أتريد أن نستدعى قساً ياريجيه؟ لا تفعل ذلك. لستُ مؤمناً. إننى متمسك بما أعرفه وسوف أموت غير مؤمن.

وبذل جهداً لكى يتسم، وواصل حديثه بصوت واهن:

- إذا كانت هناك حياة أخرى، فإننى أفضل الجحيم.

وجاءت اللحظة الأخيرة. امتقع وجه بيدروتيسيانو فى نوبة ألم.

- إننى أموت! إننى أموت!

قفز باولو.

- أجبني يا تيسيانو. ما هو حل المشكلة؟ لأى هدف نحيا؟

- نحيا من أجل الحياة. السعادة هى كل ما لا نبلغه، إن ما نرغبه.

- والسر فى أن نكون مطمئنين؟

- ألا نرغب فى شئ. وأن نقلع عن الرغبة تماماً. أن نحيا لكى نموت... سقط منهكاً. بكى چيرونيمو كطفل. وكان ابن تيسيانو قابعاً فى ركن يتأمل المشهد الأليم. رفع المحتضر رأسه بجهد يائس. تلفت حوله ملقياً نظرات الوداع. تتم فى صوت سحيق، صوت ما وراء الموت:

- يالها من نهاية حزينة للأساتى الكبيرة!

وحاول مرة أخرى أن يبتسم. لكن الألم قاوم فمه. أغمض عينيه. ومات بيدرو تيسيانو. عانق ابنه جثته طويلاً. وأخذ چيرونيمو ينتحب. وبدأت ابنته الصغيرة تردد صلاة لا يحفظها باولو ريچيه، تطلب الخلاص لهذه الروح. كانت الطفلة تردد بصوت عال:

- «يا أبانا الذى فى السماء.»

أراد باولو ريچيه أن يصلى معها. لقد مات بيدروتيسيانو ملحداً! خرج من الغرفة قبل أن ينفجر فى التحيب، وبدأ يصلى بطريقة مضحكة مثل ابنة الميت...

وفى النهاية، وجدا خوسيه لوبيز، عند الفجر، مخموراً فى إحدى الحانات. هزه باولو:

- خوسيه ! خوسيه!

- ما بك يا باولو؟

استعاد خوسيه لوبيز وعيه عندما نظر إلى هيئة صديقه المنهكة.

- لقد قضى بيدروتيسانو نحبه.

- ماذا؟...

قعد خوسيه لوبيز. أخفى وجهه بيديه. وزالت سكرته.

- وأنا الذى لم أكن حاضراً...

- لقد بحثنا عنك، وكان من المستحيل أن نعثر عليك.

- يا للشقاء! يا للشقاء!

- الآن، ينتظرنا عمل كبير. علينا أن نقوم بعملية الدفن.

- فعلاً.

- أنت يا خوسيه لوبيز الذى ستتكلم.

- لا أحد غيرنا سيذهب إلى الدفن.

ولكن حدث عكس ما توقعوا. حضر الكثيرون عملية الدفن. لقد سرى الخبر بسرعة فى المدينة.

علق باولو ريجيه:

- إن الأدباء الضعفاء سوف يطiron من الفرع. فهاهم قد تخلصوا من عدوهم الأول. وتذكر جيرونيمو أن بيدروتيسانو كان يعتبر الأدب البرازيلى فرعاً من الأدب البرتغالى. وكان يعلن ذلك، الأمر الذى أثار غضب الأدباء الوطنيين. ولا بد أنهم سعداء الآن. وربما من أجل التأكد من موت بيدروتيسانو مستتابع جميع

الصحف وكل أدباء المدينة عملية دفنه. ولكنهم سوف يندمون. كانت خطبة خوسيه لوبيز عنيقة فضحت كل الأغبياء الذين عارضوا بيدروتيسيانو فى كل شئ الذين تناسوه دوماً، وهامهم الآن يحضرون دفنه من باب النفاق. إن يسدرو لايهمه حضورهم. لم يطلب منهم أن يحضروا ولن يشكرهم على ذلك. قوطعت الخطبة بنحيب البعض. وكان هو يعمل أحياناً، فكان الأدباء يعتقدون أنه لن يتأخر فى اللحاق بيدروتيسيانو.

ظلوا سوياً على مائدة إحدى الحانات إلى وقت متأخر من الليل، يتذكرون صديقهم الميت.

- إن آخر علاقة تربطنى بالحياة قد قطعت. فقدتُ كل شئ. والآن أفقدُ من بقى من أصدقائى.

لم يرد الآخراڻ على خوسيه لوبيز فقد كانا مستغرقين فى صمت ثقيل.

- ريكاردو بعيد جداً.

تذكر چيرونيمو:

- لابد أن نخطر ريكاردو.

وتعهد باولو ريجيه أن يكتب إلى الغائب.

- مسكين ريكاردو! سوف يحزن كثيراً...

- سوف نكدر سعادته...

كان «الفونوغراف»، فى أحد الأركان، يث أحد الحان السامبا الشهيرة: «حقاً، إنها جميلة هذه الحياة»....

- إن الشخص الذى ألف هذه الأغنية مغفل كبير. فهذه الحياة شقاء... أخذوا يتذكرون آخر كلمات تيسيانو.

- كنت أقول دوماً: إنه كان يعيش مأساة كبيرة.

- الإخلاص للحظة الأخيرة...

- أو المزحة الأخيرة؟

- لقد توصلتُ اليوم، يا باولو ريجيه، إلى طمأنينة بيدروتيسيانو. لم أعد أرغب في شيء... سوف أحيا هكذا حتى مماتي...

لم يقل جيرونيمو شيئاً لاعتقاده بأنه وسط هذين الرجلين التعسفين سيكون كمن يرتكب جريمة محاولة بلوغ السعادة.

غادروا الحانة. وكان «الفونوغراف» ما يزال يغنى هازناً:

«حقاً، إنها جميلة هذه الحياة...»

اشتروا الجرائد من صبي يرتجف في أسفاله. أفردت كل الصحف مقالات طويلة عن موت بيدروتيسيانو وكالت له المديح. وخصصت له جريدة «الاستادو دا باهيا» عنواناً كبيراً باللون الأسود. كانت تنعى رحيل «الأديب الكبير الذي أدار الجريدة زمناً فزاد من شهرتها». ثم تابعت «نحن الذين كنا أصدقاءه حتى آخر لحظة، نحن الذين لم نتخل عنه» وختمت بقولها: إننا في حداد مثل البرازيل كلها التي فقدت واحداً من أبنائها.

- كلب جوميز هذا!

- اسمع... لقد أرانى ابن تيسيانو اليوم برقيات تعزية من اتحاد الصحافة ومن أكاديمية الآداب...

- أنذال! بمجرد أن يموت عدوهم يحتفلون به. لكن قبل ذلك كانوا يقطعونه خوفاً منه...

وتوعد خوسيه لوبيز:

- ولكننى سوف أكتب مقالات عن ذلك... سوف أسحقهم.

وانفضوا، كل إلى بيته.

كان القمر فى السماء. لا يشبه امرأة ذابلة. كان مجرد كوكب تابع للأرض.

كان على الرغم من كل شئ يشعر وكأن شيئاً ينقصه. فمنذ وفاة بيدروتيسانو كان اقترابه من السعادة التامة يتحقق بسرعة. لقد نسي مزاح صديقه ونصائحه ومخرياته. لقد ألقى عنه مشاكله كشئ لا طائل منه. لقد تخلص بسرعة من عدم رضاه، الذى لم يكن إلا موقفاً فكرياً. تحت تأثير تيسانو. كان يتذكره كأسطورة، ككائن استثنائى يعذب الآخرين ويفرض وجوده عليهم. تيسانو الذى كان يعذبه ويلقى الشك فى نفسه وسيطر عليه بقوة تبجح به وبكل صفاته الغريبة كملحد. وبدأ جيرونيمو سواريس يشعر بنفس الحماسة عندما يمر الجنود فى الشارع فخورين يتغنون بما يسمى النشيد الوطنى. وبدأ من جديد يتذوق الأشياء العادية فى الحياة. أقام علاقات مع جيراته. وكان يتناقش فى السياسة مع السنيور «بريدو ريديس انطونيس دا انكارنا سانو» الذى كان مستغرقاً فى المطالبة بعودة البلاد إلى النظام الدستورى. وكان يبتسم محياً الجارة العجوز القصيرة التى تصنع الحلوى لتبيعهها فى المدينة. أصبح من جديد الموظف الصغير المثالى كما كان فى السابق، قبل أن يعرف بيدرو تيسانو.

كان يرتقى إلى السعادة. وفوق ذلك كانت لديه كونييساو، المومس السابقة، الرقيقة للغاية، غملاً عليه حياته. كانت تحبه كما تحب النساء اللاتى يعن أجسادهن لحشد من الرجال. إن هؤلاء النساء هن جوهر الحب، وذروة الرقة. كانت كونييساو تخمن رغباته. كانت تمنحه النعيم اليومى الذى ينعم به الرجال

المطمئنون، والذي يبحث عنه الآخرون كثيراً. فى المساء، كانت تضع رأس جبرونييمو على حجرها وتظل ساعات بأكملها تداعب شعره المجعد. وكانا يمكنان صامتتين من فرط السعادة. لم تعد هناك أيام المزاج العكس. نفس الشيء دائماً. نفس الطيبة. نفس الابتسامة التى تبوح بتخلصه من عدم الرضا.

كانت روث، زوجة ريكاردو، قد أصابت بقولها إن مسألة عدم الرضا هذه عبارة عن أدب...

واليوم، وإن كان يعطى الحق لروث! أدب كله... فإنه مع ذلك يشعر أن شيئاً ينقصه.

إن سعادته كبيرة ولكن لا يمكن اعتبارها مطلقة. إنه ما يزال يتألم من شئ لا يعرف كنهه. وفى بعض الأحيان، صحيح أنها أحيان قليلة، كان ذلك الشئ يخطر بذهنه فكان يسبب له الاضطراب. إن شيئاً ينقصه...

وفى العمل حيث أصبح الآن يذهب كل يوم فى الموعد المحدد، كان يترك قلمه ويستغرق فى التأمل. الحب، حصل عليه. يتقاضى مرتباً جيداً. المأكل جيد، والفراش مريح. ما الذى ينقصه إذن؟ أليكون شيطان عدم الرضا هو الذى أرهقه؟ أليكون سخریات وتناقضات بيدروتيسانو هى الحقيقة؟

- لا. إن مسألة عدم الرضا والشك هذه تخص باولو وخوسيه لوييز. لاتخصنى أنا. إننى برجوازى سعيد بلا ذرة من العقلانية...

- ولكن بحق الشيطان ما الذى ينقصنى؟

أيقظه زميله فى المكتب:

- هيه، أخى العزيز! أنت فى القمر؟

- لا. إننى أفكر فى أشياء...

- تفكر؟ أنت شاعر؟

- ماذا ! أعوذ بالله...

وفى المساء أيضاً كان يتساءل. طالما أنه لم يصل إلى السعادة الكاملة فلن يجد الراحة قط. فالمرء ينتهى بأن يصبح تعساً باجتراره المشكلة. فى ذلك الوقت لم يكن جيرونيمو سواريس يرغب فى شئ أو يطمح إلى شئ. ورغبته فى أن يصبح رئيساً للقسم لم تكن طموحاً حقيقياً.

* * *

تمددت «كونشيساو» بجانبه راضية، فاتحة ساقيهما فى سكينته من أشيع غرائزه. ومسحب جيرونيمو الغطاء فوقه لينام. ولكن آفة المناجاة لم تفارقه، تلك الآفة التى ورثها من معاشرته بيدروتيسيانو. وقبل أن يستسلم للنوم كان قد استغرق فى أفكاره.

إنه فى نهاية الأمر لم يخزن أصدقاؤه. وتيسيانو نفسه يقول: إنه ليس هناك فضائل أو خطايا، والمسألة ببساطة تنحصر فى كيف يرمى المرء فضائله كخطايا أو كيف يهبط بخطاياهم إلى عداد الفضائل. لقد كانت فضائله هى دافعه إلى الرضا، ومع ذلك فقد حاول الآخرون جميعاً بلوغ السعادة وفشلوا، أما هو فقد فاز بها.

كان، فى سذاجته، يعتقد أن المسألة مجرد حظ. فلم يتذكر أبداً عبارة تيسيانو: «إن الحمير والأغنياء هم وحدهم من يبلغون السعادة...»

والأسوأ من ذلك. كان هذا الشئ الذى ينقصه. إذا عثر عليه فسوف يعيش سعيداً بقية حياته. ماعساه يكون ذلك الشئ؟

- لاشئ، لايتقصنى شئ. إنما ذلك من بقايا تأثير الأصدقاء.

وبدأ النوم يطبق على جفونه. تكور على نفسه وراح فى التعاس. رأى حلمأ غريبأ. استعاد فى هذا الحلم الليلة التى عاد فيها ساخطأ من عند تيسيانو وأرغم كونشيساو على أن تنتزع صورة القديس أنطوان من على الحائط، فوق السرير، وأنها يكت كثيراً...

نهض قافزأ. لقد وجد حلاً للمشكلة. فالشئ الذى يتقصه هو الإيمان، الدين، الله.

وأخذ سعيدأ يهز كونشيساو:

- كونشيساو! استيقظى يا حبيبتى!

فتحت الفتاة عينأ مغطاة.

- ماذا هناك يا حبيرونيمو؟

- أتعرفين أنه لابد من الذهاب غداً إلى القديس؟

- ها؟

تململت وبحركة تدل على نفاد صبر (يوقظها من النوم ليزعجها) واستدارت إلى الجانب الآخر وواصلت نومها.

- ليس أمامى إلا أن أذهب وحدى...

رسم حبيرونيمو سواريس إشارة الصليب وغطى رأسه بالملاء ونام أول نوم هادئ فى حياته...

كان الوكلاء المتجولون الذين غامروا بالوصول حتى هذه المدينة الصغيرة فى قلب «ياوى» قد أصدروا تصريحأ قاطعأ بأنها:

ـ مدينة صغيرة بلا حياة ولانشاط والناس هناك يعيشون فى عزلة.

لقد كانوا فى الحقيقة على صواب، فهذه المدينة نموذج لمدن شمال البرازيل،

تنقصها الحياة. التجارة الصغيرة فى أيدى بعض العرب الماكربين، والصيدلية، التى لا تختلف عن أى صيدلية، فى أى ضاحية برازيلية، هى المكان الوحيد للخطباء: الطبيب والمدرس والقاضى والمحامى والسيد «ليوكاديو» مدير مكتب البريد وكل وجهاء المنطقة. ومتجر الحرير والدكان الذى يعرض فى واجهته لحم الضأن والدجاج، أيام السوق. والشارع الطويل الواسع حيث يوجد مبنى المحافظة وحيث يسكن الطبيب. وميدان المساحة حيث تصطف منازل الصفوة. الرجال البارزون وحدهم يسكنون هناك. هناك أيضاً بضعة شوارع صغيرة ضيقة بها قليل من المساكن وكثير من الخلق. وعلى تخوم المدينة، هناك ثلاثة منازل حيث تسكن قلة من المومسات. لاشئ جديداً على الإطلاق. السينما فى أيام الخميس والسبت والأحد، وفتيات يطرزن الدانتيل (ما يزال هناك فتيات يطرزن الدانتيل) جالسات أمام الأبواب. كل الناس يعرفون بعضهم البعض. والحديث عن المستقبل فن.

فن صعب تتفوق فيه دونا «فيليسمين» زوجة «يوكا» النجار. مدينة حتى الصغار فيها لهم شخصيتهم. قلة من الصبيان وكثرة من الفتيات. رومانسية خالصة تعود إلى عام ١٨٣٠. قلة من الصبيان فقط من يعرفون النساء ذلك لأن القليل من بينهم قد بلغ نواً الحادية والعشرين، العمر الذى يسمح لهم فيه آباؤهم بأن يفقدوا براءتهم. هذه هى البرازيل فى كامل طهارتها!

وأغنيات «الكوكوس» التى لايزالون يرقصون على أنغامها فى بيوت الأثرياء (ذهبت دونا «ريزوليتا»، ابنة المحافظ، إلى العاصمة لتدرس موسيقى «الكوكوس» ولكنها وجدتها مثيرة للسخرية. كانت تعزف على البيانو موسيقى حديثة همجية، لذلك ثأر منها الناس واعتبروها مجنونة...» والقس بهيئته الأبوية يبارك كل

الناس، قس طيب أب خمسة عشر من الأبناء أصبح بعضهم آباء. بدائية الدين وروعته، الدين المفعم بالخرافة تجعل منه ديناً أفريقياً أكثر منه لاثينياً. اللفظ لا يكف في الصيدلية كل يوم، من الثامنة حتى الظهر، ومن الواحدة حتى السادسة مساءً. يلعبون الدومينو أمام بابها، يحيط بهم الفضوليون الذين يشجعون اللعبة الحلوة (كان «تيودورو» بطل لعبة الدومينو). والزيجات النادرة للشباب الذي لم يهاجر إلى سان باولو بحثاً عن الثروة والحظ.

قليل من الطرافة والجدة وكثير مما يشير الدهشة. مدينة صغيرة سعيدة حيث الفتيات لا يقرأن «بيتيجريللى» ولا «يعثن» فى السينما حيث يفكرن فى الزواج. فى هذه المدينة يعتبر «فلوريانو بوكشوتو» (١) بطلاً معبوداً حيث يعتقد الناس أن المجتررا نخشى البرازيل «عندما تقع الحرب مع الأرجنتين...» - ويترك الكابتن تيودورو الدومينو ويصف مآثر المستقبل). عندما لا يصاب الشبان بالسيلان وتبلغ المومسات قداسة لآتمس. وهناك أيضاً، وهو شئ لا يصدق، هناك الحب فى هذه المدينة. حب نقى بلا شهوات. (حيث يحب المرء دون أن تخامره الأفكار اللئسة: هذه هى الوسيلة الناجعة لمعرفة إذا ما كان المرء يحب حقاً، وفقاً لرأى شباب المنطقة...)

- بركتك ياميدى القس...

- ليباركك الله يا ولدى.

وفى وسط الشارع. يمد شاب فى حوالى الثامنة عشرة يده ليتلقى بكل احترام بركات ممثل السماء. شاعرية لذيدة مضحكة لمناطق البرازيل الداخلية. وفى قلب ذلك، أغلقت صحيفة «القرنفل» بسبب انعدام الأخبار والمحربين... ولكن فى

(١) سياسى وماريشال برازيلى، ولد فى ماشايو (١٨٤٢ - ١٨٩٥)، أحد زعماء ثورة ١٨٨٩ (المترجم)

أيام العيد القومي تموج المدينة بالحركة. تزدان بأعواد البامبو والأعلام ذات اللونين الأخضر والأصفر، وتعزف الفرقة الموسيقية فى السقيفة بميدان المساحة الحائناً وطنية، فخورة بإتقانها - إنها أفضل فرقة موسيقية فى المدن وضواحي الولاية. فى العاصمة فرق قليلة التى باستطاعتها أن تنافسها. ورغمما عنه كان «يوكا» التجار الذى يجيد عدة صنائع من بينها وظيفة المايسترو «لا يعرف (كلا)»... ولاشارك فى إحراز نصر فى أى من جولات العاصمة إذا كان هناك تحد...

وفى السوق الخيرية، كان بعض الأتراك يلتقطون صوراً فورية، وشبان يتحدثون مع خطيباتهم.

فى يوم العيد الكبير هذا قام المحافظ المحترم (محترم لدرجة أن الثورة لم تتجح فى خلعها فقط بتغيير اسمه إلى «مشرف») بالاشتراك مع الكابتن تيودورو بتنظيم برنامج احتفالى خارج عن المألوف. فى الثالثة بعد الظهر تحدث سيادة القاضى من سقيفة الميدان، وفى المساء عقد النائب العام مؤتمراً عن «العيد الوطنى».

النائب العام هو ريكاردو براس. كان قد حاز شهرة كخطيب مفوه ببعض الخطب التى ألقاها فى مناسبات احتفالية مثل هذه المناسبة. وفى الاحتفالات كان يلقي أشعاراً من نظمه كانت تنال إعجاب الأنسات وتثير غيرة دونا روث. بل لقد أعاد ريكاردو الحياة لصحيفة «القرنفل». أحب اسم الصحيفة: «القرنفل»، فالقرنفل مثل المسمار باستطاعته أن يثقب ويخترق، وكعود قرنفل يمكنه أن يبهج ويعطر.

اسم مناسب، غنى بالمعانى. كانت أعمال ريكاردو قليلة. لم يكن هناك إلا عدد قليل من المتهمين. فكان يرى الطيور، ويثرثر فى الصيدلية. يحب زوجته. وكان يشعر فى قرارة نفسه بالشقاء التام. لم يخلق لهذه الحياة. كان نفس الشئ يعذبه: افتقاره إلى شئ غير متوقع. لقد كان أصدقاؤه على حق: ها هو لم يجد

السعادة فى الزواج. فشلت تجربته. وتحول حبه إلى عادة. قُبلة الصبح، والوجبات المقترحة خلال اليوم. والمناقشات من أجل الغداء، وفى المساء وهما فى السرير، كانت روث كما هى لا تتغير أبداً. لم تعطه أبداً إحساساً جديداً، ولم تقل له أشياء مسلية. إنه يحبها بطريقة برازيلية، برجوازية للغاية، جديرة بامرأة متزوجة، بلا نزوات أو نقائص. كان الهدوء الذى يعيشان فى كنفه يعذب ريكاردو براس. بالقطع لم يخلق هو لذلك. تفاهة هذه الحياة - الأكل والنوم وإلقاء خطبة هنا أو هناك والتحدث إلى أناس جهلاء... لقد فشل... عدم الرضا الذى ظن أنه قهره. يسيطر عليه تماماً. واستولى عليه الإحباط. كان يقضى أياماً صامتاً، يقرأ الكتب القليلة التى أحضرها من «باهيا». وكانت «روث» ترى أنه «تغير».

- إنك فى حاجة يا حبيبى الصغير لأن تفقد جنون الأدب...

- أعرف ذلك.

كان يحب أن يتجول فى الأراضى المجاورة ويفكر. لقد دفن حياته. فى يوم من الأيام سيصبح قاضياً. ولن يتجاوز هذه المرتبة، سيكون قاضياً محترماً بقية حياته، لقد كان من الأفضل كثيراً أن يبقى فى «باهيا» مع أصدقائه، يعانى معهم المأساة التى تعذبهم.

أكثر من مرة، كان يبدأ فى كتابة رسائل إلى باولو ريجيه وخوسيه لوبيز ولكن الغرور كان يمنعه من إرسالها إليهم. لم يكن يبوح بتعاسته لأحد... لقد فشل...

- السعادة لا ينالها إلا المغفلون والأغبياء...

كم هو على حق بيدرو تيسيانوا! كان ريكاردو يحتج، وكان يؤكد أن معنى الوجود يكمن فى الحب. وبرهن على ذلك فتزوج، وأحب زوجته التى تنتظر طفلاً. لقد حقق كسباً نسبياً ولكنه تعس للغاية.

كان يظن أن الهناء اليومى فى تناول الرجال الأذكاء...

* * *

كان ميدان المساحة يعج بالناس. كل الناس فى أبهى ثيابهم. وكان هناك صار للحلوى ^(١)، ولعبة القدور المكسورة، وسباق الأجولة ^(٢)، وخطبة سيادة القاضى. وفى المساء المؤتمر الذى طال انتظار ريكاردو براس له.

- إنه متحدث جيد. النائب العام...

- سيلقى قصيدة «صغيرتى، إن هذه لمعجزة»... وسوف يحاكي:

«عندما تمرين أيتها الأميرة...»

كانت جماعة من الناس تثرثر فى صخب، وكان ريكاردو جالساً بجانب زوجته مستغرقاً فى أفكاره. لم ير القاضى الذى أقبل عليه بلا كلفة:

- مرحباً يا ريكاردو!

- أوه. دكتور فاوستينو! لم يبق إذن إلا وقت قليل لنسمع خطبتك...

- سوف ترى. خطبة رائعة. لا يوجد هنا سواك والطبيب، أنما فقط ستفهماننى أما الباقون فجهلاء...

طالب الحاضرون سيادة القاضى أن يلقي خطبته. انطلقت الفرقة الموسيقية تعزف النشيد الوطنى. تقدم القاضى منتصباً، فى معطفه الفراك القديم وشعيرات قليلة بيضاء تهفّف فوق صلعته مشيراً بذراعه. وبدأ الخطبة:

(١) صارى يعلق فى أعلاه حلوى، ولا يمكن الحصول عليها إلا بتسلق الصارى. (الترجم)

(٢) سباق يقوم فيه المتسابقون بالقفز، وقد وضع كل منهم نفسه داخل جوال. (الترجم)

- أيها البرازيليون...

ارنجل الخطبة التي حفظها عن ظهر قلب في الليلة السابقة. استرجع الماضي
المجيد للمدفع (مدفع قديم، عديم الجدوى، من أيام الحرب مع الباراجواي، من
بقايا ثروة المدينة) وختم بأن قبل العلم في وجد:

- وطني الأم! وطني الأم!

وانطلق التصفيق والتهليل والعناق والتنهاني والتحيات.

- خطبة رائعة!

- حتى زوجة المحافظ بكت.

اقترح الكابتن تنظيم جيش احتياطي. سيكون ذلك رائعاً. عندما تقع الحرب مع
الأرجنتين...

أراد القاضي أن يعرف رأي زميله ريكاردو براس في الخطبة.

- لقد أعجبني كثيراً. كانت رائعة جداً...

حاول الأطفال أن يتسلقوا صاري الحلوى سعياً وراء ورقة نقدية من فئة الخمسة
آلاف رايس كانت تتأرجح فوق القمة. ومن قدر مكسور خرجت قطعة مذعورة
وهربت يلاحقها الأطفال المشاكسون. كان ريكاردو براس يراقب كل ذلك بضيق
شديد. لقد دفن حياته...

- لماذا لا تذهب وتحدث مع المحافظ والقاضي؟ إنك هنا مثل الدب...

كانت روث تستغرب مسلك زوجها.

اتجه ريكاردو نحو الجماعة. كانوا يتحدثون عن تكوين الجيش الاحتياطي.

- ليكن سيادة النائب العام هو الرئيس.

- شكراً. الرئيس يجب أن يكون سيادة المحافظ.

- وسيادة القاضي، السكرتير.

والطبيب سيكون أمين الصندوق.

- والدكتور ريكاردو. الخطيب...

- موافقة.

اقترب السيد «ليوكاديو» مدير مكتب البريد:

- دكتور ريكاردو. بالأمس وصل خطاب لك، ها هو.

خطاب من باولو ريجيه. كان متلهفاً على أخبار من أصدقائه. وها هي جاءت.

لكن عليه أن ينتظر كثيراً، فبعد نهاية الاحتفال، هناك المباركة، وموعظة القس

عن عفة...

أغلق على نفسه الغرفة. عندما أتم قراءة الخطاب تساقطت الدموع من عينيه وبللت المرافعة التي كتبها منذ أيام. لقد مات بيدرو تيسيانو... مات وهو يؤكد أن السعادة هي ألا نرغب في شيء... أما هو، ريكاردو براس الذي رغب كثيراً... الحياة من أجل الحياة... وهو أراد الحياة من أجل الحب... تعس... تعس... ترك رأسه تسقط فوق المنضلة في حركة إحباط كامل. واستولى الأعياء على أعضائه...

- لا يبلغ السعادة إلا المغفلون والأغبياء...

- كل نصر في الحياة فشل في الفن.
وأخذ صوت بيدرو تيسياتو يرن في أذنيه. وأخذ يتراءى له شيخ صديقه،
طويلاً ضامراً في لباسه الأسود دوماً، متشككاً يتنطق بالمفارقات...
- أن نصل إلى أقصى درجات الإنكار للرغبة...
ويكى ريكاردو براس على فشله.
سمع طرقاً على الباب. لم يجب. طرق الباب من جديد.
- من؟
- أنا، روث...
- ماذا هناك؟
- أتريد أن تجعل المحافظ والقاضي ينتظران؟ لقد حان وقت المؤتمر. هيا.
وحاز ريكاردو براس. في ذلك المساء، نصرأ هائلاً، بخطبته الوطنية...
بعد ذلك. كان الضججر...
نفس الشيء دائماً.
الأرض تدور حول الشمس ٣٦٥ يوماً
يوم ويوم آخر.
الأرض تدور حول نفسها في ٢٤ ساعة.
النهار والليل.
دائماً نفس الشيء.
نفس المأساة: مأساة الرتابة...

كان التغير الذى طرأ على خوسيه لوييز سريعاً. لقد اختفى منذ شهر، ولم تفلح المحاولات التى بذلها باولو ريجيه فى العثور عليه. لقد تبخر خوسيه لوييز. كان نادى القمار قد أغلق. وصاحبة البنسيون ليس لديها معلومات. وفى ظهيرة اليوم الذى قرر فيه باولو ريجيه الكف عن البحث عنه قابله خارجاً من عيادة طبيب. كان متأنقاً تبدو عليه الطمأنينة.

جرى وراءه فقلب كمية من علب الهدايا كان رب أسرة محترماً يحملها بعناية فائقة إلى منزله.

- هالو، خوسيه!

استدار خوسيه لوييز وعانق باولو ريجيه بحرارة.

- كنت على وشك أن أذهب لرؤيتك.

- لقد اختفيت، لقد انهكتُ قدمى فى البحث عنك...

أخذ باولو ريجيه يتأمل صديقه. وجهه هادئ وابتسامة على شفتيه، أياكون قد عثر على غاية الحياة؟

- إنك شخص آخر... تغيرت تماماً... هادئ...

- أتعقد ذلك؟

- أعاشق أنت؟

- لا، لحسن الحظ.

- ماذا إذن، بحق الشيطان، وقع لك، لتصبح هكذا؟... هل تذكر ذلك الإعلان الذى لم أعد أذكر عن أى دواء كان؟؛ «فى البدء كنت هكذا» مع صورة لرجل مريض نوعاً؛ «وأصبحت هكذا» مع صورة الرجل وقد أصبح جلدأ على عظم. «واليوم فأنتى هكذا» ويصبح الرجل سميناً وقوياً. إنك حققت معجزة الإعلان. عندما عرفتك كنت مريضاً نوعاً. بعد ذلك ساءت حالتك بشكل كبير. واليوم، أنت معافى تماماً...

كان خوسيه لوبيز ينصت مبتسماً.

- أى دواء ذلك الذى شفاك؟

- أنذهب إلى الحانة؟ هناك نكون على راحتنا ونثرثر.

- هيا بنا.

كانت الحانة مزدحمة! الراديو يذيع مباراة فى كرة القدم. ونساء متقصعات كن يوزعن الابتسامات. ورجال جادون يشربون فى صمت، فى تلك البهجة الهادئة التى تسيبها أكثر الفضائل قدسية: الحماسة.

جلسا إلى مائدة فى ركن منعزل. لم يعد باولو ريجيه نفس الشاب الأنيق مثلما كان عند عودته من أوربا. أصبح قليل الاهتمام بملبسه، مفعماً بالمشاكل التى كانت كلها ذاتية. ومع ذلك فالنساء تنظر إليه. الدكتور باولو ريجيه أليس هو صاحب المزارع الكبيرة؟

- أهي الفلسفة...؟

- نعم...

- أتذكر بيدرو تيسيانو يا خوسيه لوبيز؟ كان يقول: إن المرء يحيا من أجل الحياة، وأنه لن يجد السكينة مهما كانت نسبية إلا بالكف عن الرغبة. أن يصبح لا مبالياً... ألا يرغب في شيء... مثل بوذا، توصل تيسيانو إلى هذا الكمال. أما نحن رجال هذا القرن فلن نقدر الشك كما فعل. سنحاربه ونحارب بيدرو تيسيانو. لقد حاولنا أن نكتشف معنى الوجود؛ الغاية التي من أجلها نحيا؛ السعادة إن أردت الدقة. وأنت. كنت تقول: إنها تكمن في الحقيقة الفلسفية، وريكاردو يراس يقول إن الحب المبني على العاطفة هو وحده الذي بإمكانه أن يقودنا إلى مرفأ الأمان. لأن معنى الحياة يكمن في الأشياء الطبيعية وحدها... كنت أفكر مثله ويحدث عن السعادة في الغريزة. لقد فشلنا. لا أتحدث عن جيرونيمو فهو لأنه تافه ليس من هؤلاء الرجال الذين يعذبهم عدم الرضا. وعدم رضاهم ليس إلا انعكاساً لعدم رضانا.

- نعم...

- لقد فشلنا، وأنت قلت لي، يوم وفاة تيسيانو، إنك لم تعد تنتظر شيئاً من الفلسفة... وإنك تخليت عن...

- من حق المرء أن يصاب بالإحباط أحياناً.

- قلت لي إنك لا ترغب في شيء، وإن بيدرو تيسيانو بشكوكه التي ترجع إلى ما قبل الحرب. كان على حق، وإن الحقيقة هي الشك وإنك مؤيد لرأيه...

- أكرر لك أنها كانت لحظة إحباط، ولكنني لم أتخل أبداً عن البحث في الفلسفة عن قوة تقهر عدم الرضا. لحل المشكلة...

- وهل وجدتها؟

- لقد وجدتها. إن الثقافة الفلسفية تكفى لتجعلنا فى سكينه...

- إن السكينه هى تزيف...

- ... تزيف السعادة، أعرف. ولكن السعادة المطلقة لا وجود لها. ولا حتى بالنسبة للحمير. ولا حتى بالنسبة للحيوانات. فما بالك بنا نحن البشر! فلا بد من السكينه. السكينه التى لم يمنحها الزواج لريكاردو براس، وأبت الغريزه أن تمنحك إياها...

- ولكن هذا ما بلغه بيدرو تيسيانو بالشك.

- أى مبدأ فلسفى.

- مبدأ ألا يكون للمرء فلسفه...

- وهذا أيضاً موقف فلسفى...

- وهذا هو الموقف الذى تبنيه أنت؟

- كلا.

- إننى لا أفهم إذن كيف يمكنك أن تكون فى سكينه. من يمتلك الحقيقه؟

أنت أم بيدرو تيسيانو؟

- أتبحث عن هذه الحقيقه القديمه جداً التى ظلت لقرون طوال فى قاع بئر؟

هذه الحقيقه يا صديقى تقبع هناك. وكما قال تيسيانو، لن أذهب لأخرجها من هناك. سأترك هذه المهمه المضحكه للآخرين...

- لم أعد أفهم...

- لأن الحقيقة شئ نسبي. ولايد من حقيقة خاصة بكل إنسان. وهذا ما يمنح
السكينة لكل فرد فتكون له بمثابة الحقيقة المطلقة...

- معنى ذلك أن أى نظام فلسفى يحل مشكلة شكوكنا؟
- نعم.

- شئ عجيب!

- إنها مسألة عواطف... إنك فى حاجة إلى الله، لذلك لجأت إلى «التومائية».
إنك فى سكينة. والحقيقة الفلسفية للتومائية بالنسبة لك هى الحقيقة الكبرى...

- أنت تومائي؟ لقد كنت دائماً تقول لى...

- كلا. لقد وصلت إلى الطرف النقيض. إننى مادمى...

- وحاجتك إلى الإيمان؟

- بدلاً من الإيمان بالله أو من بالإنسانية. أريد سعادتها...

- إذن أنت...

- ... شيوعى...

- مستحيل...

- هذه هى الحقيقة.

- ولكن للشوعية عيوباً لا تحصى يا خوسيه.

اتخذ خوسيه لوبيز هيئة جادة، كمحام يستعد للمرافعة. فانفجر باولو ريجيه
فى الضحك.

- إنك تسخر منى...

- لا أقدر على ذلك...

- إذن أنتحب الإنسانية كلها؟

- كما فعل المسيح... وبوذا أيضاً... أما بالنسبة لعيوب الشيوعية فمزايها تغلب عليها...

- ولكنك تتساوى مع كل المغفلين...

- فى اللحظة الراهنة كلهم أسمى منى...

والأسرة؟

- ليست لى أسرة وأنت تعرف تماماً. وتابع قوله:

- ومع ذلك. لابد من التخلص من الأحكام المسبقة للشعب، لابد من هدم الكنائس والمثل، لابد من قطع الرؤوس. وحكومة النخبة؟

- نخبة البحارة...

- إن نخبة اليوم هى نخبة الأमीين والمغفلين...

- أتؤمن بالإنسانية؟ ويعواطفها النبيلة؟

- أوه، كلا! أؤمن بالعواطف لا بما يسمونه بفجاجة العواطف النبيلة.

سوف نرعى العواطف الدنيئة ونهذبها.

- والحركة الروحانية؟

- مجرد رد فعل...

- إننى مع الوقت، أشعر بحاجة قوية للإيمان...

- ذلك لا يعنى أنك تشعر بالحاجة إلى الإيمان بكائن أسمى. فلتؤمن بالإنسان وبالأشياء المادية. تذكر أنني كنت أفكر مثلك...

- أتريد أن تحولنى عن إيمانى؟ لن أكون شيوياً جيداً. إننى أحب التألق فى الملبس.

- إنك غنى، ولا أسمى لأن أحولك عن إيمانك. إنك برجوازى كبير، عليك أن تحاربنا...

- أنا؟ كلا. فليتحول العالم. لقد أصبحت فى غاية الشقاء... إننى مثال واضح لجيلى. الجيل الذى يعانى والذى شهد الديموقراطية تلفظ أنفاسها الأخيرة، وشهد ميلاد الشيوعية. جيل عبارة عن همزة وصل. جيل المعاناة. لقد ضعت فى ليل الشك وهأنذا أغوص فيه رويداً رويداً. أيد خفية تخنقنى. إننى فى نهاية الأمر فى حاجة إلى أى شئ مهما يكن...

- إننى أفهمك تماماً.

- وأشعر أن سكينه بيدرو تيسيانو التى هى سكينتك لا تكفينى. ربما أطفالى الصغار وحدهم هم من سيحلون المشكلة. كل الجيل الذى خاض صراعاً هو الجيل الذى يعانى. لقد خضنا صراعاً ضد الشك...

كان الراديو يصرخ بمعجزات إحدى القديسات التى ظهرت فى مدينة بداخل ولاية «ميناس جيرائس».

- إن هذا الشعب التقى لن يقبل أبداً نظامك السياسى.

- إن هذه التقوى تساعد.

- إننا، برازيليو اليوم. نشعر فى داخلنا بمليون نقيصة. إننا نعانى من أجل أجدادنا ومن أجل أحفادنا...

- الحل هو...

السكينة من جديد؟ إنه متوتر الأعصاب فى الآونة الأخيرة. سوف يعالج نفسه فى أوربا. سيقراً كثيراً. ربما تكون الفلسفة...

- تفاهات...

احتجت أمه. لقد وصل بالأمس... لقد رتب كل شئ. وهى مستذهب أيضاً لتشاهد العالم القديم. أمضى النهار يصف لها العجائب. واقتنعت. اتفقا أن يذهب إلى ريو لشراء الحاجيات الضرورية وعندما تمر السفينة بياها تصعد هى. وفى ريو شعر باولو بهدوء أكبر. فى زحام هذه المدينة الرائعة، لم يعد يتذكر مأساته الغرامية. كانت ماريا ديه لوردیس قد خبت داخل عقله. وبقي له الشك فى كل شئ. وعدم الرضا المعتاد، ووسواس من شئ مجهول... قرأ الصحف، شباب يؤمسون كتائب فاشستية، والحزب الشيوعى يزداد صعوداً. الماديون والكانتوليك يناقشون قرارات الحكومة بشأن التعليم. كان السخط يفوح من أعمدة الجرائد، وكان الشك يلقي بظلاله على وجوه الشباب.

- أعتقد أن مصيبة كبيرة سوف تقع...

أعلنت الصحف اليومية أن الشعب يسارع إلى داخل ولاية «ميناس جيرائس» حيث تقوم إحدى القديسات بشفاء المرضى. أما أخبار الحوادث فقد قرأ تفاصيلها باستمتاع.

واستولت على باولو ريجيه رغبته فى أن يخنق الجميع. لماذا لا يجدون السعادة؟ لماذا لا ينسوا مشاكلهم؟ أليسوا طيبين؟ لقد أراد أن يكون طيباً، وأن يساعدهم جميعاً. ولم يستطع. كره أشباهه. لن يغفر لهم غيابهم...

- لقد خضت مغامرة السعادة... يادون كيخوته المسكين!

* * *

- فى أى يوم تريد أن تسافر يا سيدى... الأحد، يوم الكرنفال...

أسف الحمال الزنجي. لم يسمعه فقد كان منغلقاً على ذاته. مكتئباً. هبط ونادى
تاكسياً.

- أوصلنى إلى الميناء.

- فى أى ساعة تريد أن تكون هناك ياسنيور؟

- خلال أربعين دقيقة.

أعلن السائق:

- مستحيل. فى يوم كرنفال نستغرق ساعات وساعات فى عبور الشارع.

- أوصلنى إلى حيث تستطيع، وسوف أكمل الطريق مشياً...

هبط من السيارة وأخذ يتجنب الزحام الرهيب. كان الناس يرقصون السامبا
فى الشارع وكان باولو ريبييه، وقد اعتصر قبعته فى يده، وتشعث شعره والغضب
يقدح من عينيه، يحاول أن يشق لنفسه طريقاً، دفعاً بالقبضات والمناكب.

- ابتعدوا أنتم بحق الشيطان!

- هيه، أيها الأبيض، أنرقص السامبا...

وجلبته الخلاسية. والتصقت به بشهوانية.

- اتركنى أيتها الزنجية!

وانتزع نفسه من هناك مخترقاً كتلة الزحام.

- فى نهاية الأمر، قد يكون هذا الشعب على حق. ربما يكمن كل شئ فى
الكرنفال...

- يا لأناقة ملايسك!...

ورشت عليه الفتاة فى هستيريا من زجاجة عطرها.

- فلتذهبى إلى الجحيم!

وبدا من جديد تعساً. عندما وصل من أوربا وكله غريزة كان قد عرف مفاتن الجسد. واليوم يسيطر عليه الشك فقط...

لحق بالسفينة فى آخر لحظة. الركاب قليلون، انجليز وأرجنتينيون يعشقون المدينة التى كستها الظلال. الليل يسود ريوديه جانيرو. كان باولو ريچيه على سطح السفينة يقارن المدينة الكرنفالية الغارقة فى الظلام بروحه. وفجأة، انتشر الضوء فى المدينة التى بلدت ساطعة، خارجة من الظلمات. وابتعدت السفينة فى هدوء...

كان باولو ريچيه عصبياً يضغط على شفتيه وهو يشاهد أمامه، على جزيرة «كوركوفادو» تمثالاً للمسيح فارداً ذراعيه وكأنه يبارك المدينة الوثنية. وزاد الحزن فى عينى باولو ريچيه. رفع ذراعيه فى حركة تنم عن منتهى اليأس وتمتم وهو يرمق التمثال الهائل:

- يا سيد، أريد أن أكون طيباً! يا سيد أريد أن أكون مطمئناً... وعلى البعد كانت تختفى بلاد الكرنفال.

ريو، ١٩٣٠

انتهى

- انتحار عام...-

صمت باولو ريچيه منهكاً. ومن جبهته العريضة كان يسيل عرق بارد. وكان خوسيه لوبيز حزيناً، تضعيع نظرتة الشاردة فى عمق الحانة.

- هذه الحياة...-

عائق باولو ريچيه، فعليه أن يذهب إلى منزل صديق، إسكافى. وباح لصديقه هامساً فى أذنه:

- لابد أن نجد مبدأ، مثلاً أعلى، أن نوهم أنفسنا على الأقل. إننى أوهم نفسى بمسألة الشيوعية هذه، لذلك هربت منك. إنك تواجهنى بالواقع، وتشغلنى بالأحزان. إننى الآن أعالج نفسى من السل الذى يترصدنى... رأيت... لقد أصبحتُ عاقلاً... وقد أصبح غيباً...

تابعه باولو ريچيه بنظره حتى نهاية الشارع.

تمتم فى صوت مأساوى:

- التمس...-

جرع كأس الكونياك.

- التمس...-

قرر أن يعاود الرحيل إلى أوروبا. عندما عاد إلى البرازيل، أنيقاً، متشككاً. مُدمراً، مفعماً بالأحلام كان يعتقد أنه حقق شيئاً ذا بال. سوف يصبح كاتباً معروفاً وسياسياً بارزاً. لقد فشل... كان فقط غير راض، تعساً، بعد أن تعرض للمأساة غرامية وحاول الانتحار. سيعود إلى باريس لكى ينسى. من يعرف إذا كان سيجد

إن «بلاد الكرنفال» التي صدرت في البرازيل في ١٩٣١ ظلت حتى وقت قريب لا يمكن قراءتها إلا بالبرتغالية حسب رغبة مؤلفها. في ١٩٨٤ فقط، ونحت إلحاح الأستاذة «لوتشانا ستييجانو بيتشو» وافق جورجي أمادو، وبصفة استثنائية، أن تظهر الرواية في إيطاليا في طبعة خاصة بمناسبة عيد ميلاده. بعد ذلك كان طبيعياً أن يصرح للسيدة «آليس ريار» أن تترجم الرواية إلى الفرنسية فصدرت عن دار جاليمار في باريس في ١٩٩٠ وهي التي نقدمها هنا.

في هذه الرواية التي كتبها في سن الثامنة عشرة يضع أمادو يده على موطن الداء في البرازيل: البحث عن الهوية. ليس في السياسة فحسب بل في الاقتصاد والأدب وأساليب الحكم وكل نواحي الحياة.

أليست هي المعضلة في كل بلاد العالم الثالث تقريباً؟ وهكذا تكون هذه الرواية التي كتبت منذ أكثر من ستين عاماً صالحة للقراءة اليوم وغداً، بأبعادها الإنسانية وتخطيها لحواجز التاريخ والجغرافيا معاً.

«المتدجم»